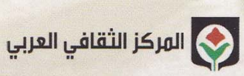
حسن أوريد

رواء مكة

سيرة روائية



المركز الثقافي العربي

حسن أوريد

رَواء مكة

حسن أوريد

رَواء مكة

سيرة روائية



المركز الثقافي العربي

الكتاب

رَواء مكة

تأليف

حسن أوريد

الطبعة

الأولى، 2019

عدد الصفحات: 224

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-923-4

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

سورة الزُّمَر، الآيات 53-55.

الإهداء

إلى من إليهم أنا مدين بما كنته وما إليه صرت، إلى والديّ، أبي مولاي المهدي بن علي، ووالدتي فاطمة آيت امْساعد، وإلى روح جدتي للانا بنت الحسن رحمها الله. إليهم الفضل على بدء النشأة تحت ظلال القرآن وهذا العود لنبع الإسلام.

رَواء: ممدودة، مفتوحة الراء، أي عذب، وأنشد ابن بري لشاعر:

من يكُ ذا شكّ، فهذا فلَجُ   ماءٌ رَواءٌ وطريقٌ نهجُ

والرُّواء بالضمّ والمدّ، المنظر الحسن.

عن **لسان العرب**، مادة روي.

«إنها (الكعبة) دلالة تُقوّي بصيرة المُتبصر، وتُسدّد فكرة المتفكر».

العبدَري الحيحي: **الرّحلة**.


ومَضات

خواطر شتّى تتجاذبني وأنا أتوجّه من مكناس، حيث كنت أقيم، إلى مطار الدار البيضاء لأداء فريضة الحجّ. . هل قدّرتُ يوماً أني سأشدّ الرحال إلى الديار المقدّسة وقد نفرتُ عمّا كنت أراه رسيس تربية ومخلفات ثقافة؟. . هل يستقيم هذا العزم وقد نبذتُ ماضيَ ورائي ظِهرياً؟ وهل هو حجّ أم استكشاف؟ وأي استكشاف يكون؟ ألمْ أدفع كلَّ الدعوات التي تلقّيتها لأداء الحج، متأدّباً أحياناً، متندّراً أخرى، مستشهداً بمقولة تُنسب إلى أحمد شوقي وقد قرّر الخديوي أن يبعثه إلى الحجّ: «كل شيء إلّا ركوب الجمال يا أفندينا». ألمْ أنتهر أمي حينما رغبت في الحجّ، لأني كنت أرى ما لا ترى؟. . كنت أرى في الحجّ وقد تواترت حوادث الازدحام والحرائق والضحايا مخاطرة. وهل أدفع بأمي إلى التّهْلكة؟ ثم ما يفيد أن يطوف المرء وسط الزحام، ويرشق نصْباً بالحجارة؟. . . فأي رحلة هذه التي سلكت، من رافضٍ للحجّ، متندّر بشؤونه إلى مُقْدم عليه. وهل هي أوْبةٌ إلى ذلك الحضن الذي احتضنني وأنا بعدُ صغير، أم هو استكشاف لطقوس وعبادة ووقوف على تجمّع ضخم هائل ليس إلّا؟ هل هي مصالحة مع الإسلام، أم هي قطيعة نهائية تأخذ شكل

سَفَر للوقوف على وجه من وجوهه؟.. واستحضرت سابقة عالِم أنتروبولوجي حَرَّكه الحنين إلى ما أسماه بيته الوجداني، فحجّ.. ولكن الحج والمظاهر التي عاينها ما زادته من الإسلام إلّا نفوراً. هو احتمال أن تكون القطيعة النهائية.. وبعدُ، أنا لا أزيد أن أفيَ بنَذْر قمتُ به في حالة ضعف.. ولكن ينبغي الوفاء بالنَّذْر.

ثم قريبتي تلك التي فقدت ابنها، وارتأيت أن أبعثها هي وزوجها للحجّ ليسلوان. وهي تُلح عليّ أن أصحبها وإلّا فهي لن تذهب.. ووثائق السفر التي ضاعت فلم يوجد لها أثر عند الجهة المضيفة. ألم أعبّر حينها عن الارتياح وقد اتصل بي صديقي عبد الرحمن أبو حيمد يعتذر أن قد ضاعت الأوراق.. وأنا أرفع عنه الحرج:

- لا عليك يا عبد الرحمن، الخير فيما اختاره الله..

وأداري في حقيقة الأمر فرحتي أن أُعفيت من الحج.. فأنا حِلٌّ إذاً من النَّذْر الذي قطعته، وأنا في حِلّ من إلحاف قريبتي..

ولكن أبا حيمد يتصل بي بعد يومين ليقول:

- أَبْشِر، أخ حسن، أوراقك وُجدت..

ودخلت البيت واجماً وكنت في إحدى الجولات التفقدية، وأنا إذّاك والٍ على جهة مكناس تافيلالت، ولاحظَت زوجتي إطراقي. فقلت بالفرنسية: يبدو أن قصة الحجّ صارت حقيقة. فردَّتْ:

- عليك أن تبتهج.

شعرت حينها بجسامة الأمر.. فليس الحجّ عبثاً، حتى لو لم يؤمن به المرء. لا يمكن الهُزء به. لو أعفيت لكان خيراً لي.. ولكن..

ثم استحضرت تلك اللحظة التي قطعت فيها النّذر. . أذكرها بكل ملابساتها. . يونيو من سنة 2006. كان يومَ جمعة وقد أنهيت أشغالي ولم يبقَ إلّا أن أحضر معرضاً للمنتجات التقليدية لجمعية فلسطينية من غزة حلّت بالمغرب واستضفتُها بمكناس، مساعَدة لها على الحصار المضروب على المدينة وساكنتها. وأبى ساكنة مكناس ومجلسها آنذاك إلا أن يشتروا البضائع كلها، جملة، وبثمن جزافي فوق ما كان مطلوباً، يبتغون من ذلك مساعدة الشعب الفلسطيني. ثم شاهدنا فيلماً وثائقياً يَعْرض للمعاناة التي يتعرّض لها الفلسطينيون، وكان منها صورة طفل تعرّض للضرب المُبرَّح من قِبل جندي إسرائيلي، فغلبتني دموعي، ثم اعتذرت للحضور، ولم أكن أخبرت أحداً أني مُقبل على إجراء عملية. كانت تلك الفرصة الأخيرة للبُرء من الآلام التي عانيت منها الأمرّين لزهاء عشر سنوات نتيجة خطأ طبي. . كنت أعاني في صمت، وكانت آلامي الجسدية قد أثّرت على نفسيتي، فأضحيت فاتر العزيمة، شارد الذهن، متأثّراً لأدنى حادث، وقد ملك ذلك نفسي حتى غلب عليّ الأسى وران عليّ الحزن. وقصدت فرنسا مرّتَين لإجراء العملية لمعالجة الخطأ الطبي عند من يُعدُّ من كبار المختصّين، وفي أرقى المستشفيات، ولم تُكلّل العملية بالنجاح. فلم أرَ بدّاً أن أقصد طبيباً مغربياً، في مستشفى عمومي. . أثار انتباهي بهدوئه وسمته. كان ذا لحية خفيفة تنِمُّ عن تديُّنه، أو كذلك قدّرت. لم يُدرِج في حديثنا أية إحالة دينية. . كان عقلانياً في تصرّفاته كلها، متئداً في قصده. كان يخشى أن تكون العملية مغامرة، وكنت عازماً على إجرائها مهما كلّفني الأمر. . ثم غُرْت بعدها في مسؤوليات الإدارة الترابية بمكناس، وعلى رهان

تنظيم ملتقى فلاحي بها. . . ولم نلتقِ إلّا بعد سنة من لقائنا الأول. ووصلت المستشفى بالرباط خمس دقائق قبل الموعد المحدّد قادماً من الحفل الفلسطيني بمكناس. وحلّ الطبيب. لم يَبْدُ من ملامحه أنه كان واثقاً، بل لم يَبْدُ أنه كان مهتمّاً. . حضر في الموعد المضروب، ووصفَ لي مهدّئات، ثم وعد بأن يأتي عند الغد على الساعة السابعة صباحاً. وعنّ ذاك الطبيب في الموعد، كما لو هو ساعة سويسرية. .

لا أزال أذكر، والليل بهيم، وآلام شديدة تعتصرني بعد العملية، أني حاولت أن أمدَّ يدي إلى ناقوس الممرضة، فلم أستطع لشدة الآلام وبُرحائه، فاستعضت بآلة التحكم عن بُعد للتلفاز التي كانت على مقربة مني. أشعلت التلفاز لأسلو، لأنسى آلامي. . ووقعت على قناة تي في 5 الفرنسية في حديث مع الناشطة الحقوقية الإيرانية تشرين عبّادي، حائزة جائزة نوبل. . سألها الصحافي إن كانت تؤمن بالله، فردّت أنْ نعم، وكنت أحسبها علمانية، بَلَه ملحدة، لإصرارها على السفور ورفضها ارتداء الشادور في نظام يفرض ارتداء الشادور. حكت، وهي في مقتبل عمرها، أن أمها مرضت مرضاً وبيلاً تردّد أنها لن تُشفى منه، فابتهلت إلى الله أن يشفي أعزّ عزيز لديها. وكان أن شُفيت أمها وعاشت بعد ذلك سنين عديدة. أطفأتُ التلفزيون إثرها، ورددت في تلك اللحظة أني لو أُشفى فسأذهب إلى الحجّ.

هل استكشافُ بُعد متعالٍ في حياة الإنسان، أو في حياتي على الأقل، يفترض أن أبدأ من الحجّ؟ ولِم الحجّ؟ من دون شكّ لرمزيته، باعتباره الركن المكمل لصرح الإسلام. باعتباره الجامع للمسلمين. ولكن هل ما قطعته على نفسي آنذاك يلزمني؟. . أنا قلت

ما قلته، في حالة ضعف شديد، بين اليأس والرجاء ولم أكن مالكاً لقوتي وأداتي النقدية.

ولكنه كان نَذْراً. . .

وكان أن شُفيت. وهل يلزمني النَّذر؟

وسوّفته. .

ولكن أشياء أخذت تتغيّر في حياتي وفي نظرتي إلى الأشياء والأشخاص. . أتملّى حولي ممّن يملأ قلوبهم الإيمان، فأعجب لسمْتهم وسكينتهم. . هل يمكن أن تُصرَف الحياة بالعقل وحده؟ هل حياة الإنسان مقاولة تخضع لمنطق الربح والخسارة، والحساب الدقيق، أم أن الحياة تخضع بالأساس لأشياء غير مرئية، لأشياء تعِزّ على العقل؟ هل معرفة العالم واكتشاف أسراره تعطي بالضرورة معنى للحياة؟ كانت نارٌ هادئة تعتمل في ذاتي تهيّئني لهذا الأمر الجسيم. وهل كنت لأذهب إلى الحج لو لم أؤمن به؟. .

كنت مؤمناً بما قمت به، ولكنني كنت في قرارة نفسي متهيّباً من الأمر. كنت أعرف أني إن أديت فريضة الحجّ، فعليّ أن أطوي صفحة من حياتي. وكانت أشياء كثيرة تشدّني إلى حياتي السالفة. . متع، وحظوة. . . وسراب، ولكني ألفته، هذا السراب. وكنت أستحضر قصة تُنسب إلى قائد من قواد قبيلة امْتوكة ذهب إلى الحجّ، وسأل أي الدعاء يدعو برحاب الكعبة، فقيل له:

- دعاء رسول الله: اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك.

فردّ:

- هي مشات تقيّادت (ذهبت الإمارة إذاً).

فأنا لو ذهبت إذاً لحُرمت من الاستمتاع بما عليه درجت. وقد أُدفعُ إلى هدم الأصنام... وقد أفك الأغلال، وكم من الأغلال أثيرة لدى الإنسان إن هو ألفها..

في مارس من سنة 2002، بدير الراهبة حريصا على مشارف بيروت، كنت أنظر إلى جموع الرهبان وهم يتلون صلوات الفصح.. كانت صلواتهم تُتلى رخيمة عذبة. ولَكَمْ أحببت حينها لغة الضاد وهي تنساب من ألسنة أولئك الرهبان المسيحيين، في عذوبة ورقّة. وجدت في دفاتري إحدى تلك الصلوات التي استأثر إلقاؤها بِلُبّي، أنقلها ها هنا:

عرفت بأن قد تعثّر دربي

عرفت بأن قد تعثّر دربي فجئت إليك تقود خُطاي

وتعرف أني بحبك ربي أهيم كصبٍّ وفيك هواي

وليس لدربي سواك رفيق يا ألله يا ألله

نهبت الطريق أفتّش عنك بِحَيْرَة ضعفي وأوهامي

سمعت الخليقة تنشد لحناً لقلبي فتنعش إيماني

حلَّتْ لي الإقامة داخل بيتك يا ألله يا ألله

إذا غبتَ عني شردت بذاتي، غرقت بحزني، دهاني الضجر

وإن كنت حييت فرحت نثرت الطيوب نشرت الزهَر

تطيب الحياة تطيب بقلبك يا ألله

ربي أنت الطريق.

ربي أنت طريقي في معاثر الحياة، ربي أنت رفيقي حتى ساعة الممات.

أنت وحدك دعوت، أنت وحدك رجوت، أنت غاية المنى، أنت مصدر الهَنا.

اعضدِ الموجعين، ساعدِ البائسين، أشبعِ الجائعين، أَرجعِ الخاطئين.

أنت نار لقلبي، أنت أيضاً نسيم. أنت هديٌ لدربي. أنت فجري الوسيم.

أنت حب في قلبي، أنت نار ونور. أنت هدي لدربي، نبع كل سرور.

في مكان ما من ذلك الدير كُتبت هذه المقولة التي لم تفارقني قط: لا ترحل عن هذا المكان إلى أن تتحوّل.

ما جدوى أن أنفر إلى مكة حاجّاً وأزور المدينة إن لم أتحوّل؟ وهل الحجّ إلّا هجرة؟ هجرة في الله.

مسجد صغير في حي تيمدقين الشعبي بإفران، والبرد والثلج، والزمن بداية الثمانينات، والساعة العشاءان، وعمري لا يربو على العشرين إلّا قليلاً. أقفُ على بوابة المسجد فلا أجد إلّا الفراغ.. مصاحف في رفوف، ونور باهت من مصباح من عل السقف. كنت أبحث عن أخي الذي أصيب بانهيار عصبي جرّاء صدمة نفسية.. كنا لما أن كنا بالرشيدية، أو قصر السوق كما كانت تُسمّى آنذاك، قد درجنا سوياً في مسالك الدراسة، وكنت لما أن التحقت بالرباط للدراسة الثانوية بالمدرسة المولوية بعثه والدي إلى بوذنيب على الحدود الجزائرية عسى أن يُخَضِّدَ القسم الداخلي من حِدَّتِه. كان شموساً، أبيّاً، عصياً، وكان يرفض ما تواضع الناس حوله واستقرّوا بشأنه ويستنكف من البهرجة والظهور. يحب الخشن من الملبس ويستهجن المثير من المظهر. يسأل أسئلة بريئة تثير ضحكنا نحن إخوته وأقاربه وتستثير غضب والدي: لِم نكْلف بما تواضع الناس حوله؟ لِم يُقبل الناس على الدراسة كلهم؟ ومَنْذا سيقوم بالأعمال اليدوية؟ لِم يحب الناس الوجاهة؟ ولِم نسمّي هذا المسمى بهذا الاسم وليس بذاك؟ وببوذنيب كان مع موعد غيَّر حياته رأساً على

عقب. كان مع أترابه وهم دون الثانية عشرة من أعمارهم يلعبون في أرباض الثانوية بالحمادة.. ولم يلبث أحدهم أن عثر على عبوة لم يتبيّن أمرها، فعبث بها، فإذا هي تنفجر، وإذا هي تحيل جسمه إلى أشلاء. كانت قنبلة. هل هي من مخلّفات حرب التحرير الجزائرية، ممّا كان يزرعه العسكر الفرنسيون ليصدّوا المجاهدين الجزائريين من الانسحاب إلى التراب المغربي، أم من بقايا الجنود المغاربة المتمرّنين على الحدود؟.. رأى الأطفال زميلهم وقد تحول إلى أشلاء، ورأوا أطرافه وهي تُجمع ثم تُحمل على ظهر بغل.. كان ذلك ما استقيته من أخي عبد الله، بجهد جهيد، إذ هو حين يتحدّث عن الموضوع يُطرق شارداً، ويبدأ جملة ولا يُتِمّها. وكأنما أحال هذا الحادث أخي شخصاً آخر، منطوياً على نفسه، يملؤه الفَرَق ويستبد به الخوف، وتنتابه الهواجس. واسْتفحلَ الأمر إلى أن أصيب بالسكيزوفرينيا. وكانت تعتريه حالات يغيب تماماً، فيسرح على غير هُدى، ويمشي حافي القدمين أحياناً، ولو في البرد القارس.

كان أبي مُدرِّساً، وكان قد انتقل من قصر السوق إلى إفران، وكانت حالات الذهول تعتري أخي وهو في الفصل، وبدا أنه لن يستطيع أن يُتم دراسته.. فكان يخرج من البيت ويسرح على غير هُدَى، فنجوب المدينة كلها، ونسأل عنه في مركز البوليس بلا جدوى، حتى يقرّر هو أن يعود. فإذا لُمناه اعتذر.. وما هي إلّا أيام حتى يعود سيرته فيضرب في الغاب.

وكان أن غاب لأكثر من يومَين في شهر ديسمبر. وكنا أن تفرّقنا في ذلك الليل البهيم نبحث عنه وسط الغابة، أو بالأحرى نبحث عن جثته، فكيف يعيش المرء وسط برد إفران القارس في فصل الشتاء بلا

دِثار؟ كيف يواجه الوحوش الضارية من الخنازير البرية؟. . .

توقّفتُ بالمسجد ما بين العشاءين عسى أن أجد لأخي أثراً أو أسمع خبراً. . وتملّيت بيت الله، فلم أجد إلّا الفراغ. . . كانت تلك اللحظةُ القطيعةَ مع كل موروثي، كما لو أني أودّعه. . لم أشعر بشيء يملأ ذلك المكان أو يختصّه بشيء. ورجعت على عقِبي. خبطت العشواء وسط الغابة مشياً وأنا أعتمد عصاً، ثم عدت ولم أجد لأخي أثراً. . كنت أرمق السماء. كانت دكناء، ولم يكن من نور ينبعث منها. كان الفراغَ. . وهل يُرضي السماء هذا الذي نبلو؟ إن كانت السماء تعي هذا العناء فكيف لا تحنو على هذه القلوب المنفطرة. . أم نحن من ملأناها من أسانا وتوهماتنا؟

كانت الحياة تقتطع مني أخي الذي درجت أنا وإياه. أخي الذي شاركته خطرات الصبا وغضارة العمر في تلك الواحة من واحة زيز، قصر السوق. . . كنا نصلي كلينا، ونتنافس في الصيام كلينا رغم صغر سننا. . كنا نتردّد على كُتّاب مسجد بوتالمين. . كنا. . . وعصفت الحياة بذلك كله. .

إن كانت السماء لا تسمعنا فلَكم هي عبثٌ الحياة. وهل نواجه صروفها برفع أبصارنا إلى السماء؟ أفلا نضل إذّاك؟

وجدت في أوراقي قصيدة بعنوان «ساعة المغيب من شرفة شقة» تؤرّخ لهذه الفترة، بتاريخ فبراير 1982 أنقلها على عِلّاتها:

الشمس ترقص ساعة المغيب

والناس بين صحْو ولَغوب

قد سكنوا، إلا من لَهْوَجة الحبيب

والقرص لا زال رويداً،
يغور في الأفق القريب..
ودخان من شفتيّ ينساب
كذكرياتي التائهة أو كالسحاب
أرمق هؤلاء الرائحين عند الأصيل
قاصدين بيوتهم حيث الهناء
وقد أذَّن المؤذن للصلاة.
وفتى يتأبط كتابْ
غضارة العمر ومرْح الشبابْ
يغُذُّ السير في لقاء الأمل
أو غانية ساعة جذل..

وعلى مرمى العين، غير بعيد
غلمان يمرحون، يضحكون
كركراتهم تبعث الهناء
تهزأ من دماء الشفق والمغيب..
وآخرون عند مقهى الحي يصخبون
يُرعدون وُيزبدون
ما البدء، ما الختام؟
شطحات لا تهدي السبيل..

وأنادي الماضي غير البعيد
صحبت أحبة إلى المثوى السحيق
رأيت التُّرْب يُحثى بلا قرار

سألت النفس، أفلا يرجعون
أفلا يُنسخون؟
أفلا نلتقي؟
أفلا يُهزم بطش المنون؟

قد تحجر الفؤاد فلا يَلين
واستعصى الدمع، فلا يُبين
وغلّقت السماء الأبواب
فلا مجيب.. ولا معين.

من لي بأيام الرائحات
صبياً أخشع للصلاة،
أي هجودي وقيامي؟
أين نُذُري وابتنالي؟
أكُلُّ ذاك يغدو سُدى
أكذا أُلقى وحيداً بلا رفيق؟

الشفق الأحمر في المغيب
يوم مُضَرّجٌ يموت..

حينما نقعت الكأس أوَّلَ مرة لم أرفعها نشوة أو لذة، بل غضباً، بل تمرُّداً.. ما وُرِّثْته غِلٌّ يعوقني نحو التحرر وأنا محتاج إلى عقلي لأفهم العالم، لأتمرّد على الظلم، وأنا لا أستطيع أن أكبت غرائزي ولا أن أضع أمامها موانع لكي أكتشف الحياة. حواسي

وسيلتي، وعقلي أداتي. أنا محتاج أن أحب وأعشق.. وأنا محتاج أن أهتك سُجُفَ ما تواضع الناس حوله..

وكانت نشوةً كبرى، وكان الغرب إمامي، ومتع الحياة أنيسي، ولو قصّرتْ ذات اليد... كانت هي السبيل ولا سبيل غيرها..

عدت لكتابات العبث لسارتر وكامو أقرؤها من جديد. وجدت فيها ضالتي. ينبغي أن نقبل الوجود كما هو، لأنه بلا معنى.. ينبغي أن نرفع الصخرة كما يفعل سيزيف، بلا تأفُّف.. ينبغي أن نتصوّره سعيداً كما يقول كامو في كتابه **الإنسان المتمرد**.

وكيف يكون المرء حرّاً وأغلال الدين تُوثِقه؟.. وأردت أن أنتشل مَن حولي..

ذات مرة سألت والدي، وقد عاد من المسجد بعد صلاة المغرب، في صقيع إفران:

- أما كان حَرِيّاً بك أن تقبع هنا في البيت وسط الدفء، مع أولادك، عوض أن تقطع الطريق وسط هذا الزمهرير من بيتنا بحي الشباب (La maison française، وهو اسمه القديم) إلى مسجد النيجر (وهو المسجد الوحيد آنذاك بمدينة إفران)؟

ونظر إليّ في ذهول ولم يُحِرْ جواباً...

وعدت إلى الماضي لا بما كانت تقودني إليه يد رفيقة، كمن يقودني إلى غرفة بها طفل نائم، يرفع في كل لحظة إصبعه إلى أرنبة أنفه ليدعوه للرفق والأناة حتى لا يوقظ الطفل النائم.. كنت أمشي، فيما سلف، بِرفق في غرفة الماضي، متأنّياً، متئداً، حتى لا آتي ما قد يزعجه.. وحينما قطعت حبل السماء، غشيت باحة الماضي بصخب، لا يضيرني أن أزعج الطفل المدلّل.. بل لم يكن هنا طفل

مُدلّل، وإنما غطاء مُسَجّى على لا شيء... غطاء تواطأ الناس بشأنه على كثير من الأكاذيب والأساطير والتخرّصات..

قرأت أدبيات طه حسين، أو أعدت قراءتها، عن بدايات الإسلام: **على هامش السيرة والشيخان والوعد الحق، والفتنة الكبرى**.. أبصرَ هذا العبقري ما لم يبصره المبصرون، لأن بالعقل يبصر الناس.. وتحوّلت لفترة إلى **لزوميات** أبي العلاء **ورسالة الغفران**.. وكان أبو العلاء المعري أثيراً لدي.. ثم قرأت أدبيات الماركسيين العرب ومنهم حسين مروة في **الاتجاهات المادية في الإسلام**، ومحسن عامل والطيب تيزيني.. وقرأت كذلك كتابات عبد الله العروي ذات المنزع الماركسي، والجابري ذات النزوع القومي العربي..

ثم أكببت على قراءة المستشرقين. مكسيم رودنسون، ووات، وگولدتسيهير.. ثم فرويد في **مستقبل خدعة، وموسى وعقيدة التوحيد**.

ليس هناك من دِين ينزل من السماء، بل هي آهات البشر تصَّاعد إلى السماء، لتعود بعدها كما ينزل الماء مطراً من السماء وقد ارتفع إليها بفعل الحرارة..

كذب الظن، لا إمام سوى العقل كما يقول المعري، ولا هادي سوى الغرب، أقول.

هل كنت أعرف الغرب حقّ المعرفة؟ كان نوعاً من الإغراء يمارسه علينا كما مارسه على غيرنا من أرجاء مختلفة، كما يقول مالرو في كتاب يعمل ذات العنوان.. كنا الجيل الذي أعقب الاستعمار ولم يَبْلُ بأُساه وغطرسته.. ولكن بقية من تلك الفترة بلغنا

نَزْعُهَا وقد انتقلتُ إلى الرباط أدرس في شرْخ الشباب، مع أستاذ الأدب الفرنسي الذي لم يُجشّم نفسه عناء فهمنا نحن أبناءَ الشعب الآتين من عدة معاطن حين كان يدعوننا أن ننطق الفرنسية كما ينطقها أهلها، وأن نتمثل طرائق الفرنسيين وأسلوب تفكيرهم. وقفنا على رسيس الاستعمار في بعض بقايا المتعاونين من الأساتذة والتقنيين الفرنسيين في حي أگدال، في ساحة جان دارك، في الكنيسة بها التي تحولت بعدها إلى مُجمّع سكني. في أبناء ثانوية ديكارت الذين كنا نلتقي بهم في المباريات الرياضية أو الامتحانات المشتركة، أو في الحياة العامة ونقف على هزئهم بأبناء التعليم العمومي. لحقت بعْضَنا لوثَةُ عقدة المستعمِر فأرادوا أن يكونوا أكثر فرنسية من الفرنسيين. وهل سلمتُ من تلك العقدة؟ وهل برئت من آثار هزء أتعرض له، للكنة أرتضخها وأنا أتكلم الفرنسية، أو تصرُّف يحمل طابع البداوة؟

لكم يُقدم المرء على الأغلال راضياً مَرْضِياً ويصرف في ذلك جهده، بل قد يبذل كرامته ويسترخصها.. ولكن هل يستفيق كل الناس؟ أفلا يرضى أغلبهم بالأغلال؟

وبدأتْ حياةٌ متمرِّدة من حياتي. نلت منها لذة العيش وازدهاء العقل.. ولم أكن أقدّر يوماً أن تشطح بي.

ودّعْنا الأهلَ والأصدقاء بالمطار، وتأهّبنا لركوب الطائرة. .
سأخلو لنفسي في الطائرة. لا أودّ الحديث إلى أحد. . أريد أن أرقب ذاتي كما يرقب الشخص بِركة ماء. . لا أسوة بنرجس. كلا، فلكَمْ شطح بي الهوى من حيث لم أدْرِ، ولكَمْ زاغت قافلتي، ولكَمْ تعثّر سيري، رغم أني ملّكت عقلي أمور حياتي . .أصبحت عبداً للذّة أَأْتمر بها، ورأيت الأوغاد الذين كنت أهزأ بهم أسياداً يهزؤون بي. . بل أضحى فارق من فوارق يَفْرِقُنَا . .أضحوا في حلّ من كل شيء، يعبثون كما يحلو لهم، بلا ضوابط. كم كان نيتشه مصيباً في تحليله لمن سمّاهم بمتعقبي الذباب في **هكذا تكلم زرادشت**. .
واعترتني خطرات نيتشه والطائرة تتهادى في السماء، والمسافرون قد غاروا في شؤونهم بين من يتلو القرآن، ومن يذكر الله، ومن استسلم للنوم. . تساءلت في غمرة هذه الرحلة التي تحملني وأطيافاً من المسافرين لِم أقيم في بيت ليس لي؟ بيت الغرب، بمنظومته الفكرية، بمرجعيته، بأسلوب حياته. سكنتُه أول مرة بلا مقابل، أو كان المقابل هيّناً، بل بدا تحرُّراً. سكنتُ بيت الغرب، وقد تحلّلتُ من رِبقة الماضي وعوائق التراث وموانع

الأخلاق. . . ولكن البيت الذي آويت إليه يضيق عليّ. فبنود العقد تضيق كل يوم، وربّ البيت لا يحترمها. يدعو لحقوق الإنسان ويغتالها. يطالب بالحرية ويمالئ الاستبداد. يدعو لحكم القانون ويغتني بالاستغلال. لقد ضاق البيت بواحد من بنيه، ليوبولد فايس، النمساوي المولد، اليهودي النشأة، والذي اعتنق الإسلام وتَسَمَّى بمحمد أسد، رحمه الله، في كتابه القيّم **الطريق إلى مكة**، فقال ما معناه: هل هذا العالم الذي كنت أموج فيه قبل أن أهتدي للإسلام، هل كنت أملكه حقاً؟. .

فكيف بي؟. .

كانت حرب الخليج أو عاصفة الخليج تحوُّلاً في حياتي. . ضربت أميركا العراق شرَّ ضَربة وتلفّعت بمبادئ القانون الدولي، ووظّفت ميثاق الأمم المتحدة. ولكن الحقيقة شيء آخر، فلم تكن الحرب إلّا من أجل البترول، ولم يكن القانون الدولي إلّا غطاء، والمبادئ الأخلاقية إلّا ذريعة. . وفارت شوارع العالم العربي ثم سكنت. وآليتُ على نفسي ألّا أنسى. خلّدت تلك المرحلة من حياتي برواية **الحديث والشجَن**، وهي سيرة ذهنية لمثقّف علماني ينثني بخيبة في مسرى حياته الفكرية بعد حرب الخليج. الغربَ هو النموذج، والغرب هو من يهجم. لم تكن شخوص تلك الرواية إلا تورية لاتجاهات فكرية. الأب هو حركة التحرير في المغرب والجزائر، والأم الأمازيغية ذاكرة الأرض التي لا يَفُتُّ من عزمها خيانة الخائنين أو زيغ الزائغين. أمينة هي البرجوازية تمزجُ بين مسحة برّاقة وجوهر عتيق يتأبّى على التحديث، لا تستنكف من الخيانة، وتميل إلى حيث السُّلطة وتمالئ المخزن. ونور الدين، أخ يوسف

من أبيه والمزداد بالجزائر، يرمز إلى الحركة الإسلامية. وطارق هو الأمل. أمّا يوسف، بطل الرواية الذي تشبّع بالاشتراكية والقومية العربية، وأخذ، بعد خيباته وإحباطاته، يَحِنُّ إلى الأمازيغية ويجدُ فيها العِوَض عمّا ضاع منه، فقد قرّرت أن «أقتله» في حادثة سير.. سوف يعيش من خلال ابنه الذي سيولد بعد وفاته.. ولكني لم أرسم ملامح طارق مُؤمّلاً أنْ سيحرق المراكب، أسوة بالجد الأكبر، طارق ابن زياد، ليَعْبر إلى الضفة الأخرى.. ضفة العقلانية والعلمانية والحداثة.

ووقر في نفسي أن أهزم روما في روما، فقرّرت أن أذهب إلى الولايات المتحدة، وكنت إذّاك موظفاً بالخارجية. كان ما يحملني هو أن أكتشف الغرب في معطن قوّته، الولايات المتحدة. كانت معرفتي بالإنجليزية بسيطة وآليت على نفسي أن أملك ناصيتها، وجعلت وَكْدي نصيحة ستالين لوزير خارجية الاتحاد السوفيتي آنذاك أندريه غروميكو لمّا أن كان دبلوماسياً بواشنطن، بأن يتعلم الإنجليزية في الكنائس لأن لغة رجال الدين راقيةٌ ونطقهم أسلم. كذلك كنت أفعل، أقصد قُدّاس الآحاد في الصفوف الأخيرة للكنيسة وأستمع إلى اللغة.. لم يكن كلام الرب لينفذ إليّ لأنني كنت محصّناً بدروع العلمانية.

ثم قصدت معهد هوبكنز لتسجيل أطروحة مع الخبير في شؤون العالم العربي، فؤاد عجمي، ولم أجد إلّا مساعدته. لا أزال أذكر اسمها الشخصي، إيفا، كانت يهودية تحسن العربية، وجرى الحديث لبعض الوقت، ثم نظرَتْ إليّ مستفهمة باللغة العربية: «هل أنت جاسوس؟»، ابتسمتُ ورددتُ بالإنجليزية: «ربما». ولم ترِدْني أخبار

فؤاد عجمي، ولم ألتقِ به قطُّ، ولم أُحَضّر أطروحة في الولايات المتحدة، وكانت بغيتي أن أُنهي مقامي في الولايات المتحدة بدبلوم أكاديمي..

وتحوّلت إلى دروس الفلسفة وتاريخ الأديان في مؤسسة سميثسونيان، ثم مع جمع في فرجينيا، وهي دروس اختيارية لا ينال الشخص منها دبلوماً.

لم أهزم أميركا، بل هزمتني.. بمتعها. ببطاقة الائتمان.. ولكني مع ذلك وقفت على أشياء عظمية. وقفت على أثر التربية البروتستانتية على الأميركيين، على نفورهم من الكذب، على إنسيتهم التي تجعلهم يهبّون نجدة للضحايا ومواساة للمكلومين.. وقفت على أثر التربية البروتستانتية في الشخصية العميقة للأميركيين، ووقفت كذلك على بطش الرأسمال وقرش المال.. ولا أحسب أني كنت أستطيع أن أميّز بين القيم الإنسية للغرب وزيغ الرأسمال لو لم أعش في أميركا.

عدت من أميركا خاوي الوفاض.. كانت سبقتني تخرصات عن عَمالة لأمير يُرتاب في شأنه، فعلاقة مع جبهة البوليساريو، كما نشرت أسبوعية صحافية.. كنت مشبوهاً، وكان ينبغي الإجهاز عليّ بشتّى الأسباب وأوهاها. وكيف يستطيع فتى أن يتقدّم في أسلاك الدولة وصورة تطالعه بأنه أوفقير المستقبل، أو أنه أوفقير صغير، هذا الجنرال الذي قام بمحاولة انقلاب؟ وعيبه أنه يشترك والجنرال موطن الولادة، ولربما ملامح ساكنة الجنوب، من طول القامة، ونحافة الجسم، والنظر الثاقب، والطبع الحادّ. وهل هذا يكفي لأحمل مشروعاً انقلابياً؟ ولم أكن وحدي أؤدّي ثمن هذه الوِزر، كان يُقتصّ

من مدينة بكاملها. كانت بوذنيب حيث مولد الجنرال غير بعيدة من مولدي، تؤدّي ثمن أصول الجنرال. أضحت مدينة أشباح..

وأخذت وزارة الخارجية تتقاذفني ككُرة. لا مكان لي في أسلاك الدولة. موظفون مغلوبون على أمرهم لا يدرون ما يفعلون، ومُقررون مُستترون يشفعون دسائسهم بابتسامات ماكرة.. وكيف أغالب ضرورات العيش؟ كنت أتبلّغ ببُلغَة من جريدة **الشرق الأوسط** لا تُقيم الأوَد. وطرقت باباً وأنا في مسيس العَوَز وعميق الأسى الناتج عن شعور الضيم. كان رفيقَ دراسة ذا حظوة وقفت ببابه لأنْ قد وعد أن يزيح اللبس ويجبر الكسر ويرفع الظلم، ولكنه لم يفعل.

وتفرّقت بيننا السُّبل بعدها أو كادت.

ورُغت إلى ذاتي محدّثاً إياها: هيا اقطعي حبال الماضي.

في نهاية أبريل 1997، نادى عليّ الرجل القويُّ زمانه إدريس البصري لأشتغل معه، والانتخابات التشريعية لنوفمبر 1997 على الأبواب. استمعت إلى عرض الوزير واعتذرتُ في رفق. كان يهمني أن أُنْهِي رسالة دكتوراه الدولة سجّلتها عن الحركة الإسلامية والحركة الأمازيغية باعتبارهما الاتجاهَين العميقَين اللذين يحرِّكان الاتجاهات الاحتجاجية بالمغرب ويؤثّران فيه، شأنهما شأن الطبقات الجيولوجية. كان يهمني أن أنغمر مع هؤلاء الشباب الواعدين في مشروع إعلامي طموح هو **لوجورنال**. لا أزال أذكر ذلك الفتى وقد أتى عندي إلى مقرّ ما سيصبح مركز طارق بن زياد، بوبكر الجامعي، رفقة من سيحتضن المشروع فاضل العراقي في رابع مارس من سنة 1997. كان يهمّني أن أنغمر في سلك القلم آنذاك. وهكذا أصبحت كاتب رأي في أسبوعية **لوجورنال**، وربيبتها **الصحيفة**.. كنت أكتب

في **لوجورنال** بالفرنسية، وفي **الحياة** اللندنية بالعربية، وفي **الصحيفة المغربية** وأوقّع أحياناً باسم «كرّيط» المقابل لفلان بالعربية الفصحى، وبجريدة **البيان** الإماراتية. وكنت أُدرّس العلاقات الدولية بالمدرسة الوطنية الإدارية والسوسيولوجية بجامعة حرة على النمط الأميركي، تُدرّس باللغة الإنجليزية. وبجانب هذه الأنشطة كنت أواظب على المساهمة في مجلة **مقدمات** كتابةً وترجمةً من اللغات الحية، انتصاراً للفكر العلماني. كانت المجلة تتلقّى دعماً من «مؤسسة الديمقراطية» (Endowment for Democracy)، وكانت تشرف عليها أميركية من أصل ليبي، ستسفر الأيام أنها كانت خليلة لبول ولفويتز، عرّاب الحرب على العراق وأحد صقور المحافظين الجدد، وقد تولّى حقيبة نائب كاتب الدولة في الدفاع في إدارة بوش الابن، ثم أُثِيب بمنصب المدير العالم للبنك الدولي قبل أن تعصف به فضيحة مالية.. كنت «مناضلاً» في تلك المجلة أنشر «فضائل» العلمانية.. وكيف لي، من موقعي، أن أعرف ما يختبئ وراء العمل «النبيل» الذي كنت أقوم به، بلا مقابل.. ثم ترجمت كتيّباً عن المفكّر الإيراني عبد الكريم سروش، وأشرفت على ترجمة كتاب **المعضلة العربية** (*The Arab Predicament*) لفؤاد عجمي.. وعنونته بالمعضلة العربية، استناداً على معنى مادة «عضل» بالعربية، حسب ما ورد في **لسان العرب**، وهي حينما يغصُّ الوليد في الفرج فلا هو بالحي ولا هو بالميت..

من أجل أن أنصرف لهذا كله قرّرت أن أتزوج. مراسم بسيطة، في مقاطعة من حي شعبي بحي تمارة، ثم أخلص للمهم.. هو دَين للمجتمع ليتركني وشأني.. كنت أشعر وكأني في حرب وليس لي أن

أفتح عدة جبهات.. كنت محتاجاً إلى شيء من السكون في حياتي وإلى شيء من النظام عوض الفوضى العارمة التي كنت أضطرب فيها.. وهل كنت أبلغ ما بلغت لولا نظام في حياتي تُشيعه الأُسرة؟ وكيف أنسى دَيني لهذه الفتاة من أبناء الشعب التي انخرطت معي في ضروب الحياة وشعابها.. لم أنسَ دَيْني، ولم أنسَ أصولي، ويحدث لي أن أذكّرها أصولي حين تنسى هي أصولها... ولكن هل كان يمكنها أن تدرك ما وراء الأشباح؟ هل كان لها أن تكسر الأغلال، كما في مغارة سقراط؟

إلى الآن لا أزال أشعر بِدَيْن للصحافة، فقد احتضنتني وأنا مهيض الجناح، صفر اليدين، رغم أني بَلوْتُ شرورها لمّا أن انتقلت إلى الضفة الأخرى.. ضفة السُّلطة، أو الزعم بالسُّلطة.. وكمْ يعيب عليّ بعض من المقرّبين مني حدبي على الصحافة والصحافيين، ومساعدتهم كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً، ويؤاخذونني على ما يعتبرونه سذاجة.. كنت ولا أزال أدافع عن مبدأ، عن ضمير لا تستقيم المجتمعات العصرية من دونه، رغم افتئاتها وشططها أحياناً. وما يهمني زيغ الزائغين ولا افتراء المفترين؟

ثُم أراني دوماً مطوّقاً بعرفان للحركة الأمازيغية. رغم كل شيء. كال لي بعضهم الأقاويل النابية، واتّهمني بعضهم بالعمالة، وتآمر عليّ بعضهم، وجاهرني بعض من احتضنت بالقول البذيء.. إلّا أن ذلك ليس بذي أهمية أمام حركة ذات جذور غائرة في التربة المغاربية. أذكر بكثير من التقدير كل الذين كانوا يَحلّون بمركز طارق ابن زياد في بداية مشواره، من كل المعاطن، وكل البلدان الناطقة بالأمازيغية.. من النيجر، ومالي وليبيا والجزائر. ومن ربوع

المغرب، من سوس، ومن الريف، ومن الأطالس. . يذهب الأشخاص، يتحوّلون، وتظلُّ الحركة دائبة مستمرّة بخطاب جديد وأشخاص آخرين. . لم أشاطرهم رؤاهم حينذاك حول اللغة العربية، لأن الدفاع عن اللغة الأمازيغية لم يكن إلّا ذريعة لفكّ الارتباط بالدين، أو أي تفكير ديني، وأي توظيف له. ولست أشاطر بعضهم، اليوم، نظرتهم إلى الإسلام. . ولكنهم أخوالي. . أخوالي هم من غرسوا في نفسيتي الغضّة بذرة الأمازيغية. . كانت أحداث عام 1973 تجثم على منطقتنا تلك النائية حينما تسلّل مسلحون منها ليقوموا بحرب العصابات. . وشهدت المنطقة مواجهات بلَغَنَا لظاها ونحن بعدُ أطفال صغار. وتأثّرت ثانويتنا، ابن طاهر، التي كنت أدْرس بها من تداعيات تلك الأحداث. وتلظّت المناطق الناطقة بالأمازيغية فَحُرِمتْ أسباب الحياة الضرورية من كهرباء وماء وطريق. . وكان الحديث بالأمازيغية مظنة للشبهات. . . وحملتُ أثر ذلك ممّا كنت أسمعه من خطابات أخوالي، وممّا كنت أراه من شظف الناطقين بالأمازيغية.

لم يعد الإسلام في حياتي إلّا ذكرى، وإلّا حنيناً يستدرُّ مني التوقير، لأنه دِين آبائي وأجدادي، ودِين المجتمع الذي أضطرب به، ولكني لم أكن أرى نفسي مُطوّقاً به. كنت أراه إصْراً، ليس عليّ وحدي فحسب، بل على المجتمع كله، والخيرة أن نتعامل معه في رفق، وألّا نواجه الخطاب الإسلامي في عنف كمن يتعامل مع حالة مَرضية. . كنت أعرف الخطاب لأني فككت بنيته في رسالة لدكتوراه الدولة، وكنت أرى أن عوالم شتّى تفصلني وحاملي الخطاب؛ فأنا كنت أنطلق من النسبي، وهم ينطلقون من المُطلق، وكنت أرتاب

فيما كانوا يردّدون من نصوص، وهم يؤمنون به إيماناً راسخاً لا يأتيه الباطل من بين يديه.. وحدث أن دعاني أحد الناشطين الحقوقيين للحوار مع إسلاميين، وكان هذا الناشط قد أمضى أكثر من ثلاث عشرة سنة سجناً بسبب انتمائه إلى حركة ماوية كانت ترفع شعار خدمة الشعب.

قلت له: لا جدوى في ذلك.

قال: لئن لم نفعل فقد يغلب اليأس ناشطي الحركة الإسلامية، وقد يجنحون إلى العنف، مثلما حدث في الجزائر.

كانت عيني على الجزائر، بل حتى في بحثي كنت قد قمت بمسح للتمايزات الثقافية، ومضاعفاتها السياسية انطلاقاً من حالة الجزائر. لم تكن تلك التمايزات الثقافية إلّا أعراضاً، ولكني اشتغلت عليها من خلال الترابط بين الثقافة والخطاب السياسي.. كانت المعارك الثقافية منذ الخمسينات، وكانت مُستعِرة في لبنان تهيِّئ للحرب الأهلية. وكنت اعتمدت في دراستي على لبنان خاصة، من خلال دراسة للمؤرِّخ اللبناني كمال صليبي، صاحب الكتاب المثير للجدل من أن أصل التوراة جنوب الجزيرة العربية... كانت عيني على الجزائر لمّا أن كنت بواشنطن ما بين عامَي 1992 و1995 والحرب الأهلية على أشدّها. تحولتْ واشنطن إلى حلبة لقاءات للمختصّين حول الشأن الجزائري، وللفِرق في الجزائر.. كنت أراهم في مراكز البحث يتوافدون، وكان لزاماً عليّ كدبلوماسي أن أتابع ما يجري.

كنت أخشى خطر الانحدار في مهاوي العنف وأنا أرصد حالة الجزائر، ولذلك قبلت عرض الناشط الحقوقي للالتقاء بأعضاء من مجلس الإرشاد لجماعة العدل والإحسان المحظورة.

مايو من سنة 1999 في شقة بحي أگدال بالرباط، وتحوطات حتى لا تقف أجهزة الأمن على لقائنا. استمعت بإمعان إلى أقوال الحاضرين، بل رصدت حتى طريقة كلامهم، ولكنّ شخصاً حضر اللقاء أثّر فيّ بالغ الأثر. كان كلامه مزيجاً من فرنسية راقية يتكلّمها سهواً ورهواً، والدارجة المغربية بلكنة الريف، ممتزجة باللهجة المصرية.. كان ذاك عمر الخطابي، رحمه الله، ابن أخ المجاهد عبد الكريم الخطابي.. كان نفحةً من الزعيم الخالد، في قوّته، وفي حدّته وصفاء تحليله. لا تزال جملته «المخزن ما كيغلطشي» ترِنُّ في أذني إلى الآن وتعقيبه عليها: إن المخزن يعرف بحاسة سادسة مَن يشكِّلون لديه خطورة، وهؤلاء لا يتوانى في الإيقاع بهم وثلبهم، أما مَن لا يشكِّلون خطورة، مهما علا صخبهم، فهو يستقطبهم ويُذوِّبُهم في أتونه. استمعت إلى الآخرين، وحاولت أن أستشفَّ من خلال حديثهم وطريقته بواطن نفوسهم. استمعت إلى دعوة أحدهم المبطنة لنا بالاستقطاب، من خلال أسلاك الملازمة، من الألفة والمحبة. وقاطعت الحديث:

- نحن نتكلم عن أشياء تهمنا كمغاربة، عن أبنائنا الذين يلتهمهم البحر وهم يحاولون أن يقطعوه للضفّة الأخرى، عن واقع مدرستنا، عن الأوضاع المتردّية لصحّتنا..

وردَّ محدّثنا من مجلس الإرشاد وكان من بلدتي:

- كنا نحسب أنّا نتحدّث إلى أناس يحبوننا ونحبهم..

وعقّبتُ:

- لم أقل إننا نكرهكم..

وانفضَّ الاجتماع...

تحلّ مضيفة الطائرة وتسألني إن أكنت أحتاج شيئاً. أَرُدّ أنْ لا. المسافرون هجعوا أغلبُهم، بعضهم يتلو الأذكار أو يقرأ القرآن... جفاني النوم، وماضيّ يثقل عليّ..

هل يمكن أن أقول القول ذاته الآن للناشط الإسلامي؟.. وكيف أكون مسؤولاً عن واقع مُتردٍّ لا يد لي فيه؟ وكيف أسعى أن أُغيِّر واقع الحال وأنا بلا أدوات؟.. هل كان عليّ أن أغشى حِمى الدولة وأعرف ميكانيزماتها لأتبيّن كم كانت نظرتي غريرة آنذاك، كم كنت ساذجاً.. وهل تذكُر حين مناقشة كتاب **حوار مع صديق أمازيغي** الذي جمع مراسلات قطبَي الحركتين الإسلامية والأمازيغية عبد السلام ياسين ومحمد شفيق، وقد نظّمته جمعية أمازيغية، لمّا أن انبرى أحد المشاركين في الندوة من الإسلاميين -وهو أمازيغي- قائلاً: الفيصل لم يكن قط بين من هو عربي وبين من هو أمازيغي، بل بين مخزن جائر وشعب مظلوم... ألا تشاطر هذا الرأي الآن؟

في بداية شهر يوليو 1999 نظّم مركز طارق بن زياد الذي كنت أشرف عليه، قراءة لكتاب **المغرب والإسلام السياسي** للباحث في العلوم الاجتماعية محمد الطوزي.. وحضر اللقاء كل من فتح الله أرسلان وعبد الواحد المتوكل عن جماعة العدل والإحسان.. لا أزال أذكر تلك المستملحة، حين استدار أرسلان نحو الباحث الطوزي معاتباً: «كيف تقول عنا كلاماً أسي محمد، وأنت تجهلنا، ولَمْ تُكلِّف نفسك حتى عناء معرفتنا، وهل نحن في أميركا، وهبنا في أميركا، فوسائل الاتصال تتيح التواصل». وكان أن قدّم الباحث حواراً لأسبوعية **جون أفريك** وأجرى تماثلاً بين الشيخ عبد السلام

ياسين وابنته من جهة، والرسول عليه السلام، على اعتبار أن ليس لعبد السلام ياسين وَلَدٌ ذكر. . والحال أن لعبد السلام ياسين أولاداً ذكوراً. . . وأبلس الباحث، واعترف أنه يجهل جماعة العدل والإحسان.

لا أزال أذكر تعليقي على تدخّل الباحث الفرنسي آلان روسيون، وكان إذاك مديراً لمركز جاك بيرك، أنني لا أنظر إلى الحركة الإسلامية كجسد أُشرّحه، كما يفعل عالِم الأحياء. . أنا وهُم جزء من الجسد. . لا أتعامل مع الحركة الإسلامية كمادة، ولكن كجزء من جسم. لك الغفران يا روسيون. وهل أنسى ونحن على ضفاف مدينة القصر الصغير نترجم بمعية الباحث محمد أديوان، كتاب **حول مائدة الغذاء** للمختار السوسي إلى الفرنسية، ولا نتمالك من الضحك، وقد فهمتَ من كلمة بناني، إصبعي، وليس اسم العَلَمْ الشائع عندنا بالمغرب؟ أعطيتَ فأجزلت. فلك الثواب.

هل أضحيت أؤمن بالحركة الإسلامية؟ كلا . . بل كنت لا أزداد منها إلا بُعداً. كنت أصْدُر فيما أرى من مرجعية علمانية صلدة تقوم على الاعتراف بالآخر، ولو اختلفت معه في الرأي. كنت أرى أن الحركة الإسلامية جزء من المجتمع ولا يجوز القفز على هذا المُكوّن. كنت أرى أن الحركة الإسلامية هي أعراض، وهي تعبير عن داء، ولكنها ليست هي الدواء، ولا هي الحل.

كنت نشيطاً على الساحة الثقافية. أوجدت لنفسي مساحة في المجتمع بعد أن ألقت بي مصالح وزارة الخارجية كما يُلقى بسِقْط المتاع. واستطعت أن أعيش من قلمي، وأُجَنِّبَ نفسي ذُل السؤال. .

ولكنّ حزناً دفيناً كان يملك شغاف نفسي. . لم يكن النجاح إلا

وسيلة هروب، كمن يركب دراجة وعليه أن يدير دواستَيها لكي تسير وإلّا وقعت على الأرض.. هو ما يسميه الفيلسوف الفرنسي باسكال بـ Divertissement، أو صرف الاهتمام.. وتحوّل المعنى إلى المتعة..

حَدَثَ شيء بسيط في تلك الأثناء أثَّر في نفسي بالغ الأثر.. كانت ابنة الجنرال أوفقير قد كتبت كتابها **السجينة**، حول ما تعرضت له أُسرتها من تنكيل، وكانت أسبوعية **لوجورنال** قد أجرت معها حواراً، وكانت ذكرى الجنرال، كما قصّة أُسرته التي أُودِعت في سراديب سجون وأنفاق، مزعجة لأولي الأمر. واتصل بي شخص نافذ، جمعتني وإياه فيما سلف أرائك الدراسة، سيكون له شأو كبير فيما بعد، بل قطب الرحى لمنظومة السلطة، كي أكتب مقالاً أردّ فيه عليها.. وتوقفت ملياً، وعاودني في رفق كما لو هو آنس مني التردد.. وفعلت.. لِم فعلت؟ هل لأدفع عني شُبهة أوفقير الصغير؟ ربما. هل لأبين أني أملك ناصية اللغة الفرنسية ولا أكتفي بالعربية والأمازيغية؟ جائز. هل لأُدلَّ لنفسي بأني جزء ممّا يعتمل وراء الكواليس وأني لست صحافياً يكتفي بما يتراءى من أشباح؟ وارد.. نعم، كتبت المقال في رفق، وكان عبارة عن رسالة مفتوحة لمليكة أوفقير أحدّثها بكاف المخاطبة تحبُّباً وتودُّداً، وأتفهّم حبها لوالدها، لكن ذلك لا يعفي والدها من ماضيه الثقيل. أما أحراها أن تنغمر -أضيف- في أتون واقعنا عوض أن تنظر إليه من ضفاف نهر السين؟ أما أحراها أن تنخرط في رفق مع شباب يبنون المستقبل بلا غلواء أو رياء؟ كان بعض من الكَتَبة الذين وُظّفوا مثلي قد انبروا في عملية السبّ والشتم.. لم أنزل إلى هذا الحضيض.. وما لبث

شعور من الأسى أن أخذ يدِبُّ في نفسي. ذهبت عند أستاذي محمد شفيق عسى أن يخفِّف من وخز الضمير عليّ وقد اعتصرني الندم، وكان يعطف على أُسرة أوفقير، وكان ابنه عمر -رحمه الله-، هو من قدّم إلي رؤوف أوفقير ابن الجنرال..

قال لي شفيق:

- هوّن مِنْ رَوْعِكَ يا فتى. هو اختبار لك، لكي لا تكون Un plumitif، أو مرتزق الكتابة. هو اختبار لضميرك. يُجْرى الحكم على حياة كل شخص على المدى الطويل، ولا يمكن أن نحكم من خلال حدث أو خطرة... ثم أخذ ينشد بيتاً لشاعر قديم بصوته الجهوري:

فقُل للفؤاد إن نزا بك نزوةً

من الرَّوْع، أفْرِخْ، أكثر الرَّوْع باطِله

خرجت من عنده وقصدت مقصف دار إسبانيا، وشربت. شربت شُرب الهيم. ثم عدت إلى الشقة التي كنت أقطن بها بحي الرياض وأنا أترنّح من السُّكْر، ودخلت الصالون، وغرت وسط أريكة، ثم أجهشتُ بالبكاء، وكان النشيجَ، وأنا أردِّد: Pardon Malika, pardon Malika. وأدخلتني زوجي إلى الغرفة ونزعت حذائي وأدخلتني الفراش.

لم يبلغ مليكة يومها النداء، نداء طلب الصفح، ولعلّه أن يبلغها وأنا متوجّه إلى مكة.. عفوك يا مليكة. وكيف لكِ أن تحملي جريرة غيرك، أنت التي تلظّيتِ وعانيتِ. أنت التي تحملين ندوب ظلم صُراح.. غفرانك يا مليكة.. وغفران كل الذين أذنبتُ في حقهم وأنا مُوَلّي وجهي شطر الكعبة، وكم أحمل من آثام وذنوب.

لم أكن سعيداً. كنت أجري وراء سراب.. لو كنت ذاتي هل كان تحملني رياح هوجاء؟ من لا يرتبطون بجذور تعصف بهم الرياح والأنواء.. كنت كتبت قصة قصيرة ولما أبلغ الثلاثين من عمري عن فتى كان ينظر إلى نفسه في المِرآة، فإذا به يرى من نفسه رأس غول. صرخ من هوْل الصدمة.. فرَّ وارتمى في حضن المجتمع، في صخبه وثغائه فأنساه اكتشافه. أصبح يداري هذا الاكتشاف بالتنائي عن المرآة. وأزاح كل المرايا التي كانت ببيته وظنَّ أنه في منأى عن الحقيقة، حقيقته، ثم ما لبث كل لوحات بيته وجنباتها كلها أن تحوّلت إلى مرايا تعكس الحقيقة التي كان يفرُّ منها. هل يمكن أن نتحامى الحقيقة؟ هل يمكن أن نتحامى حقيقتنا؟ لم تُنشر تلك القصة. رفضتها مجلة بعثتها إليها لنفحتها الوجودية، ولم يفتأ رئيس تحرير المجلة أن هزأ بي باعتباري متجاوَزاً وأني خارج الموضة... كتبت ما أشعر به، غير واضع في حسباني أي موضة، وأية مدرسة.

في منتصف الثلاثينات من عمري كتبت قصة صغيرة، ضاعت ولا أذكر منها إلا إطارها العام لفتى يقرأ في الصحف خبر وفاته. يحسب أن في المسألة هزلاً ويسأل معارفه عن نفسه، فيقولون له أنْ قد مات. يقصد المكتبة الوطنية ويطالع الصحف في التاريخ الذي يحمل وفاته.. ويُلفي سيلاً من الكتابات تَنعيه وتَرثيه. تُفيض في مناقبه. ولكن ما يقرأ لا يمتُّ إلى الحقيقة، هناك تمحُّلات، وهناك مبالغات.. هل سيخرج من موته ويصيح: «كذب، كذب.. كل ما يُتَقوَّل عني كذب، لم أكن بطلاً، ولكني لم أكن نذلاً.. سـ...» ويتدارك نفسه، «ولكني في عُرف الناس ميت..» يخرج من قاعة

أرشيف المكتبة الوطنية، وهو يردِّد: «الخيرة أن أعيش وكأني قد مت وَفْق ما حكم به عليّ المجتمع». .

كنت أشعر أني مت، أن حياتي انصرمت، وأني لا أُدَبّر إلّا الأشباح. . أسعى أن أنأى عن هذا الشعور بالجري وراء السراب. . كانت يدي مغلولة لأرتمي في حِمى اللذة، ولكن رياحاً عاتية طوّحت بي مثلما طوحت بكثيرين. . وجدت لها المعاذير والتبريرات. . فجرٌ يلوح، عهدٌ جديد وأملٌ ينبثق.

وكان السراب.

ولست بأوَّل من غرَّه السراب.

التعب. أستدير من الكرسي، كرسي الطائرة، ذات اليمين وذات الشمال. أشياء تتهاوى عليّ دِراكاً كأنما هو البَرَد.. أضع ذراعي على رأسي كأنما أتحامى وقعه... ألا تدَعُني هذه الهجمات؟.. هو ماضيّ؟ وهل هو ماضٍ؟ لقد أقبرته وأنا مُقْدم على الحجّ؟ وهل أقبرتَ ذاك الماضي؟ لا تزال أغلال تربطك به؟ نعم، ولكني نزعته من فؤادي! هل نزعتَه من فؤادك؟ أقسم بمغلظات الأيْمان أنّي نزعته من فؤادي! على رِسلك ولا تُلقِ القول على عواهنه... أُصْدُقْني القول، ليس مُهِمّاً أن تكون قطعت الأغلال، إن قطعتها، ولكن هل عرفت نفسك؟ ولكني لم أكن لأعرفها إن لم أقطع الأغلال؟ حسناً. وهل كسرتَ الأغلال كلها؟ أنسيت أوثق الأغلال وأسوأها، الهوى.. ألم تكن تَصْدُر فيما كنت تفعل عن هوى، هوى النفس. ألم تكن تريد حُسن الذِّكْر، وجميل الأحدوثة؟..

- بلى.. غلب عليّ الهوى، ولذلك أنا مقبل لـ.. لأتطهّر..

- وهل تتطهّر هناك؟ كان ينبغي أن تتطهّر من قبل..

- فعلت ما بوسعي. طُفت بمن أعرف والتمست الصفح ممن أذنبت في حقّهم... ورحمةُ ربّي وسعت كل شيء..

- ماذا تقول؟

- نعم تعبت. وآويت إلى ربي عسى أن يَهدينْ. أوَ عيبٌ أن أعيى؟ حسبت أني بعقلي ألتمس لنفسي السبيل. حسبت أني بنتاج الغرب أقارع الأكوان... كنت أجري وراء سراب.. كانت طواحينَ هواء.. أريد خباء آوي إليه. الأنواء الهوجاء والقُرّ، وراحلتي لا تَقر على قرار.. أتأبى عليّ، أيها المنادي، مكاناً آوي إليه يعصمني من التيه والضلال؟

- لا آبى عليك إلّا ما تأباه على نفسك، فأنا أنت، وأنا أناك الأعلى. فلو استدبرتَ حياتك وتملّيتها تملّياً لا شوْبة فيه ولو استحضرت بيت أبي الطيب المتنبي لوقفت على ما ينبغي أن تجهر به وتحوم حوله دون أن يُفضي لسانك بشيء. ألا تذكر البيت؟

أقِلَّ اشتياقاً أيّها القلبُ ربّما
رأيتك تُجزِي الودّ من ليس جازيا

- بلى، ولكني مرتبط برباط ذاتي، رغم كل شيء.

- ولن تكون حرّاً ما لم تصرم ذاك الحبل الذي يوثقك.

- وهل ترى من اللياقة أن نتحدث عن هذا وأنا في طريقي إلى مكّة؟

- وهل تحسب الحجّ نزهة؟ هو هجرة.

- ليتك أعفيتني.

- قد أعفيك اليوم، وحتى غداً، ولكني على أثَرَك إلى أن تتحرّر.. ينبغي أن تُخرج ما بصدرك إن أردت فعلاً أن تتطهّر..

- فليكن، ولكن ليس الآن، وهذا موضوع يطول. عمّا قليل سأنزع ردائي وألبس الإحرام.

- حسناً. لا يكفي أن تنزع عنك لباسك وتلبس الإحرام. عليك أن تنزع نفسك من كل هوى لتصدح بالتلبية.. عليك أن تدرك معناها وإلا فعبث أن تحجَّ.. هل أدركت العلاقة بين الإحرام والتلبية؟ تلبية نداء الله عزّ وجلّ يسبقها التجرُّد من كل شيء، من حطام الدنيا، ومثبطات الهوى.. هي دعوة إلى الله وحده، مُنزّهة عن كل شِرك. أيّاً كان هذا الشرك.. ينبغي أن يكون إيماناً خالصاً لله عزّ وجلّ.. لا يختلط به هواك، ولا تُشركه بأهوائك، ولا ما إليه تهفو نفسك، ولا أصناماً تراها أو لا تراها، تعبدها أو يعبدها من حولك.. لا يمكن أن تدخل مكّة قبل أن تهدم الأوثان التي انتصبت في قلبك أو في عقلك، وإلا فلن تدرك معنى التلبية، وإلّا ستكون أصواتاً تتلوها ليس غير.. وإن أنت أدركت معناها فليس مهماً بأي لسان تنطقها... التلبية تحرِّر. والإيمان في الإسلام يكاد أن يكون شبيهاً بوجودية سارتر.. ولذلك فالإسلام تحرُّر.. تحرير الأفراد، وتحرير الجماعات... المرء لا يولد حرّاً، بل يصبح حرّاً في مسرى الحياة، في مهامه جهاده، الجهاد الأكبر، بهدمه للأصنام ومحقه للأوثان.. وشهادة الإسلام، تبدأ بلا نافية، لكلّ الآلهة، لكي يَخْلُص الإنسان للواحد الأحد، الله الصمد الذي ليس كمثله شيء. ولذلك تُسمّى هذه السورة سورة الإخلاص. إيمان خالص من كل شِرْك. من الهوى، من المال، من الجاه، ممّا تواضع عليه الناس من أصنام.. ما الإسلام في نهاية الأمر إلّا رفض للشرك؟ أليس الإسلام مساراً؟ وبحثاً؟ وكَدّاً؟ هل أدركت هذه المعاني؟

- حسن، أَتُحدّثُ نفسك؟

تنزعني زوجي من خواطري.

- كنت.. كنت أتفكر.

- ولكنك تهمهم بكلام غير مفهوم. هيّا، خذِ الدعاء المستجاب، واتلُ بعضاً من أدعيته..

- كل الدعاء يبلغ الله بأي صيغة كان أو بأي لغة، إن صفت النيات وصَلُحَ القلب. الله لا يحتاج إلى همهماتنا وإلى أذكارنا.

- عليك أن تدع فلسفتك وأنت مقبل على الحجّ.. لا فلسفة مع الدين.

- ولكني لا أُراني أُقبر عقلي.. وقد تكون لك طريقة لفهم الدين تليق بك، أما أنا فقد سلكت لنفسي طريقاً أخرى..

- ترى أين قادتك طريقك؟

- لا يمكن أن أفصل تلك المرحلة عن حياتي، فليس في الأمر قطيعة، بل استمرارية.

- استمرارية ألّا تؤمن بالإسلام في مرحلة، وتؤمن به في مرحلة؟

- لم أكن أؤمن بفهم معيّن للإسلام.. ولعلّ ما أؤمن به الآن هو الإسلام في نبعه الأول؟

- وهل أنت وحدك انتهيت إلى هذا وكل الناس في ضلال؟

- لم أقل هذا أبداً.. حاشا.. ولكن الإسلام كما ورد في حديث النبي عليه السلام جاء غريباً وطوبى للغرباء.. الإسلام هو فلسفة حياة، تبدأ بإشراقة الإيمان، وعلى هديه يسير العقل، وتنتسج حياة المرء كلها من نور الإيمان ورفقة العقل. سدى ولحام. مسار يكون العقل فيها صاحباً لا سيّداً فلا يشتط في الأمر أو يجور عن

القصد. . ذلك الإشراق أو ذاك النور هو الذي يملأ حياة المرء فيزيح الغشاوات ويبدّد الظلمات. . ثم إن الإسلام دعوة للعدل، ولذلك لا يمكن أن يكون استكانةً للظلم ورضوخاً للاستبداد وعبادة للأصنام وتَبَعاً للسحرة. . الإسلام تحرُّر، وهذا التحرُّر لا يكون إلّا بالجهاد. جهاد النفس أولاً، والقيام ضد الظلم إن اقتضى الأمر. . .

- وهذه سياسة، والسياسة تفسد الدين.

- الإسلام تربية، وتزكية للنفس في أي مضمار تخوضه. . تزكية لها في كل أوجه حياتها، بما ذلك ما يهم شؤون الناس وقضاياهم، ولو فصلنا الإسلام عن قضايا الناس لأصبح طقوساً بلا معنى ولأضحى رهبنة. .

- اللهم حُسْنُ العاقبة معك يا حسن، إن كفرت بالإسلام أسرفت على نفسك، وإن آمنت به حمّلت نفسك ما لا تطيق.

- الإسلام بحث وكدح، من أجل العودة، إلى ربنا، مالكنا وبارئنا مثلما ورد في محكم التنزيل: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، سورة النجم، الآية 42، وفي آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ (سورة الانشقاق، الآية 6). قد تتعدّد السُّبُل، أما المآل فواحد. . ألم تتفكري في معنى «سبيل الله»؟ الإنفاق والجهاد، جهاد النفس، سُبُل من سُبُل الله، طُرق مفضية إلى الحق. ولا يمكن أن نحيط بالسُّبُل جميعها المفضية إلى لقاء الذات. ومن عرف نفسه، عرف الله.

- لو قرأتَ القرآن لكان خيراً لك.

- ولو تدبّرتُه لكان أفيد.

أكتب هذه الخواطر ثلاث سنوات بعد أدائي فريضة الحجّ، وأسعى أن أفهم ماذا جرى.. كل التحولات العميقة في حياة الأفراد كما في حياة المجتمعات تأتي وئيدة حتى لا تكاد تُرى.. كنت تعباً حقّاً من أن أسكن بيتاً ليس لي.. وكانت هناك إشراقات تُغري بأن أعود إلى بيتي الأول. بيتي الذي سمعت فيه صوت القرآن يُتلى من الفجر يصدح به والدي، وفيما ناغتني به والدتي من أشعار أمازيغية في مدح الرسول عليه أزكى الصلاة والسلام، أو هي تتلو عليّ قصة النبي يوسف عليه السلام، ثم فيما غرسته جدتي في نفسي، ورعاه والدي..

ولكن ذلك الميراث أضحى، في فترة من حياتي طقوساً ونصوصاً، وكان يصدّني عن السير.

ماذا جرى؟

قرأت ما كتبه الإمام الغزالي عن تجربته في **المنقذ من الضلال**، إذ يقول:

«ومن شرط المُقلّد أن لا يعلم أنه مُقلّد، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده، وهو شِعْب لا يُرأب، وشعَثٌ لا يُلمُّ بالتلفيق والتأليف، إلّا أن يذاب بالنار ويُستأنف له صنعة أخرى مستجدة».

كانت زُجاجةً تلك التي تلقّيتها من أهلي عن الإسلام وتجليته بطقوس، ونظرت إلى ذلك الفهم نظرة عقلية فانكسرت الزجاجة. لم تعد تصلح لشيء. صارت تحفة ليس إلّا.. وأذيبت في النار، نار معاناتي وكدحي وتَسآلي، وحدث ذلك التحول الذي أحالني شخصاً آخر في رحاب مكّة، وقد أنهيت طواف الإفاضة والسعي وانثنيت في

زاوية من باحة السعي بين الصفا والمروة أتساءل، هل لكلّ هذا من معنى؟

لم يُطرح ذلك السؤال في رحاب الحرم الشريف، بل انفجر هناك كما ينفجر البركان وقد كان يعتمل في نفسي لسنوات. . .

على رِسْلك أيها القارئ، سأبوح لك بكل شيء. .

خُطَبٌ مُمِلّة تتوالى في قاعة المؤتمرات بكوالالمبور لمؤتمر عدم الانحياز، فبراير من سنة 2003، وأميركا مُكشِّرة أنيابها لضرب العراق.. أسمع للعرب الأقحاح خُطبهم وهم يَلحنون، بل يخطئون حتى في تلاوة القرآن الكريم، وحتى العرب الحداثيون من القوميين وهم يسعون أن يستشهدوا بالقرآن يخطئون.. هل أُحصي أخطاءهم.. ما جدوى ذلك.. أمّا مضمون الخطب فبلا نكهة، يستعيد تعابير مَلُوكة.. لم يكن اهتمامي باللغة، أيه لغة، عبثاً، بل لأنها مؤشِّر لأشياء أعمق، وفي الحالة التي كانت تجري أمام ناظري، كانت عرَضاً لأدواء وبيلة.. عرب أقحاح يجهلون لغتهم. لِم؟ لقد تعرضوا لعملية تفسخ، أو ضوًى (من فعل ضوى) وهو ما أسعى أن أترجم به كلمة Dégénérescence، ليس ثقافياً فحسب، بل اجتماعياً.. وهي الحالة التي رصدها الأديب عبد الرحمن منيف في عمله الضخم **مدن الملح**، أو الدبلوماسي الهولندي مارسيل كوربر شوك في كتابه **البدوي الأخير، القبائل البدوية في الصحراء العربية**.. غير أنّ المسألة أعمق من أن تنسحب على عرب الجزيرة، بل هي قاعدة اجتماعية وقف عليها ابن خلدون حينما تنأى الشعوب

عن بيئتها وتأخذ بنصيب من الحضارة (بمصطلح ابن خلدون، وهو يعني الترف) وتنغمس في النعيم، وتتحلّل من الانتماء أو العصبية.

كان لي دوماً تقدير للعنصر العربي.. لم يكن للنبي محمد (أكتب كما كنت أكتب من ذي قبل، عليه الصلاة وأزكى السلام) أن يُعبّئ العرب لولا أن لهذه الأمة عبقريةً ثاوية.. كنت معجباً بأخلاق المروءة التي كانت تطفح بها أشعار عروة بن الورد وأكثم بن صيفي والتي لا أزال أذكر منها قوله: «فأمس عظة، ويوم لك، وغد لا تدري مَن أهله، وسيأتيك إن وجدك».. كم كنت أحب أن أردِّد وأنا في مقتبل العمر أبياتاً من معلّقة طرفة، وأرى فيها تجلّياً للفلسفة الوجودية:

ولولا ثلاثٌ هُنّ من عيشة الفتى

وربّك لم أحفل متى ما قام عُوَّدي

ولا تزال مقاطع من قصص العرب عالقة بذهني.. لا أزال أذكر «السُّلَيك بن السُّلَكة يقتل وينهب» وأذكر «تأبّط شرّاً، وقد شَبَّ عن الطوق»، وأذكر «أسعداً أم سعيداً»، و«السيف سبق العذَل»، و«حال الجريض دون القريض»، و«عند جهينة الخبر اليقين»، و«لأمر ما جدع قصير أنفه»..

لم تكن لغةً نتعلمها، بل عبقرية نترسّم آثارها، عبقرية أمة كانت مادة الإسلام.

ولكَم كنت أردِّد بيت جرير:

ألستُم خيرَ من رَكِبَ المطايا

وأندى العالمينَ بطون راحِ

ثم كان لي أستاذان مَلَكا ناصية اللغة العربية وأحبّاها حبّاً شديداً

وحبّباها إليّ، فأما الأول هو الحاج امحمد باحنيني رحمه الله. . كان يعشق العربية حدَّ الوَلَه، وكان كلِفاً بالمحسنات البلاغية يتعقّبها مثلما يتعقب الغريب من الألفاظ، وكانت له مع شاعر العراق الكبير الجواهري مطارحات ومناظرات، وكان طه حسين يتندر من الجواهري فيقول عنه: «شاعر عباسي أخطأه الزمان فوُلد في القرن العشرين. . » وكان الحاج امحمد باحنيني أندلسي الهوى، يبتغي أن يبعث جذوة تلك الحضارة الراقية. ولعلّ مصدر ذلك تأثّره بمستشرقين تتلمذ عليهم من جامعة الجزائر كانوا يؤمنون ببعث أندلس جديدة في بلاد المغرب الكبير، يلتقي فيها الشرق والغرب. وأذكر ممّا حكاه باحنيني لنا، نحن تلامذته، أن كان موضوع امتحان شهادة الليسانس من جامعة الجزائر مع المستشرق شارل بيلا (Charles Pellat)، من اختصَّ في الجاحظ، ترجمة مقتطفات من **التوابع والزوابع** لابن شهيد الأندلسي إلى الفرنسية.

أذكره وهو يردِّد بيتاً لعُمر بن أبي ربيعة:

وإذا الرياحُ مع العَشِيّ تناوحت

نبّهن حاسدةً وهِجْن غَيورا

فيمسك أطراف جلبابه، وكان لا يلبس إلا الجلباب المغربي، مع رابطة العنق، ويرفع عقيرته بالفرنسية:

«Regardez-moi cette beauté, cette finesse... mais c'est un tableau...»

«ألا فانظروا إلى هذا الجمال وإلى هذه الرِّقَّة، إنها لعمري للوحة».

كان حاذقاً للفرنسية وأسرارها، عارفاً بآدابها. وكان على غرار

بني عصره محبّاً للمتنبي، كَلِفاً به، يحب جزالة لفظه وقوة تعبيره، ويعشق بخاصة مديحه وفخره.. وأذكره وهو يتلو قصيد المتنبي التي يرثي فيها أخت سيف الدولة، وأذكره وهو يسأل تلاميذته: ما أهجى ما قالته العرب؟ فيردّ، هو بيت الحطيئة إذ يقول:

دعِ المكارم لا ترحل لبغيتها
فاقْعُد فأنت الطاعم الكاسي

أو هو يصدح بشعر النابغة الذبياني:

كِليني لهَمّ يا أميمة ناصبِ
وليل أقاسيهِ بطيء الكواكب

أو يشكو وشاية الواشين، في قصيدة أخرى للنابغة:

فإنك كالليل الذي هو مُدركي
وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

أو يأسى لواقع الفُرقة بين المغرب والجزائر، وقد درس فيها ويحتفظ بحبٍّ دفين لها، فيستعير قصيدة للشريف الرضي، ليعبِّر فيها عن أساه، حفّظَنا إياها، وتلاها الأمير مولاي رشيد في حفل توزيع الجوائز أمام الملك المرحوم الحسن الثاني:

ولي صاحب كالرمح زاغت كعوبه
أبى بعد طول الغمز أن يتقوّما
تَقَبَّلْتُ منه ظاهراً متبلّجاً
وأدمج دوني باطناً متجهّما
فلا باسطاً بالسوء إن ساءني يداً
ولا فاغراً بالذمّ إن رابني فما

صبرت على إيلامه خوف نقصه
ومن لام من لا يرعوي كان ألوَما
هي الكف مضٌّ تركها بعد دائها
وإن قُطعت شانت ذراعاً ومعصما

تحضرني صورة وكأنها من عالم سحيق.. وكأنها تركيب سوريالي لشيء غير واقعي متعذّر الحصول.. صورة رياض الصلح الذي شغل منصب رئاسة الوزراء في لبنان لفترة، وقد زارنا بالمدرسة المولوية، والساعة درس للأدب العربي عصر يوم الثلاثاء، مع الأستاذ الحاج امحمد باحنيني.. وكانت مطارحاتٍ للشعر والأدب.. كانا تجلياً لشيء ملأ العالم العربي وآذن بالانطفاء. نادٍ للأرستقراطيات العربية حيث لا تنفصل الأرستقراطية الاجتماعية عن الأرستقراطية الثقافية.. وكيف لنا أن ندرك أن وهج العروبة يوشك أن ينطفئ؟.. رأيت ذماء من ذلك الوهج وأنا أتجوّل في متحف بيت الدين في جبل لبنان، وسط دفاتر كمال جنبلاط. رأيت كيف أن العمق الفكري، والالتزام السياسي لم ينفصلا قط عن الرسوخ الثقافي.. وقفت على أشعار جنبلاط بخطّ الريشة بالقصيدة العمودية وأوزان الخليل الفراهيدي.. ووقفت على كتابته بالفرنسية والإنجليزية.. وتذكّرت يوم أن كانت دبابات ماركافا الإسرائيلية تضرب جنوب لبنان صيف 2006، ذلك الوميض وقد انطفأ، تذكّرته في استشهاد تصريح الزعيم اللبناني نبيه بري، وهو يمزج الغضب والإباء بحسام أبي المتنبي الصارم. كان المتنبي عبارة عن التعليم الديني المسيحي (Un catéchisme)، لجيل سلف من العرب ممن قارعوا الاستعمار. كانت لافِتاتهم وهم يتظاهرون تحمل شطر

المتنبي «عش أو مت وأنت كريم». زمن مضى.

كان الحاج امحمد باحنيني نفحةً من ذلك الجيل. وبلغني بعض من أريج تلك النفحات.

كان نسيجَ وحدِه، رحمه الله.

وأما الثاني فمحمد شفيق. كان شفيق عارفاً لأسرار اللغة العربية. وكانت أمتعَ الساعات هي تلك التي يمضيها مُنقِّباً في **لسان العرب** عن ذخائر اللغة العربية.. كان محمد شفيق حالةً يعِزُّ نظيرها. فقد كان أمازيغياً من هؤلاء الأمازيغ الذين أنشأتهم المدرسة الفرنسية الاستعمارية ليكونوا درءاً لها ورِدْءاً، فحبّبت إليهم الفرنسية لغة الحضارة وجعلت من الأمازيغية لغة الوجدان، وسعت الإدارة في كوليج أزرو أن تُبعدهم عن تأثير العنصر العربي ولغته «العتيقة» ذات الحمولة الدينية. ولكن شباب كوليج أزرو كانوا حريصين على تعلُّم العربية. كانت اللغة العربية رمزاً، رمزاً لذاكرة مفقودة يريدون أن يستعيدونها، ولوشيجة يعملون على الإبقاء عليها. وهل يمكن فصل العربية عن الإسلام بالنسبة إلى هؤلاء؟.. ولذلك أكبَّ شفيق على تعلُّم اللغة العربية وقد أربى على العشرين إلى أن أضحى أحد كبار العارفين بها الذين لا يُشَقُّ لهم غبار.. أراه وهو يتلو بصوته الجهوري بيت الخنساء في أول درس له معنا بالمدرسة المولوية:

وإنّ صخراً لمولانا وسيّدنا
وإن صخراً إذا نشتو لنحّارُ
وإن صخراً لتأتم الهُداة به
كأنه علَم فوقه نارُ

وأذكر درسه حول احتكام الشعراء في سوق عكاظ أمام النابغة

الذبياني وهو تحت خباء من أدم، ونابغةُ ذبيان يصدر حُكمه الفصل بين الخنساء وحسان بن ثابت، وهو يعيب على حسان بن ثابت بيته:

لنا الجَفَناتُ الغُرّ يلمعن في الضحى
وأسيافُنا ليل تهاوى كواكبه

ثم نستمع إلى شفيق وهو يتلو بصوته الجَهْوري قصيدة الخنساء في رثاء أخيها صخر:

قذّى بعينيك أم بالعين عُوّارُ
أم ذرّفت إذ خلت من أهلها الدارُ

كانت علاقة شفيق باللغة العربية غير علاقة أبنائها. كان يريد منها جزالة التعبير في غير إسفاف، وقوته في غير ابتذال. ثم هو لا يراها منفصلة عن منظومة أخلاق.. فلا أزال أذكر درسه الأول من كتاب **قصص العرب** «جوّعْ كلبك يتْبعك»، لأنه ينتهي بحكمة: وربما أكل الكلب سيّده إن لم ينل شِبعه.. ولذلك كان يطالبنا أن ننقل تلك المعاني إلى اللغة الفرنسية، إذ لا معنى للغة إن لم تستطع أن تنقل حمولتها إلى اللغات الأخرى وتحملَ معها قيمها.. بل كان امتحان الترجمة امتحانَ رشاقة لغة ما أو ترهّلها.. ولذلك مرَّ مرور الكرام على نصّ السُّليك بن السُّلكة يقتل ويسفك، وتأبّط شرّاً من نصوص **قصص العرب** لأنها لم تكن تحمل قيماً سامية.

وكان معجباً بالمتنبي، ولم يكن مصدر هذا الإعجاب جزالة لفظه ولا جرْس نظمه، بل قوة معانيه، ولذلك كان يعشق قصيدته التي مطلعها:

كلما أنبت الزمان قناة
ركّب المرء في القناة سِنانا

ويقف متملياً للبيتين الآتين:

وَمُـرَادُ الـنـفـوس أصـغـر مـن
أن نـتـعـادى وأن نـتـفـانـى
غـيـر أن الـفـتـى يـلاقـي الـمـنـايـا
كَـالِـحـات ولا يـلاقـي الـهـوانـا

وكان علينا أن نُترجمها إلى الفرنسية، وليس أعسر أن نترجم تلك النصوص إلى الفرنسية!

ثم أراه وهو يُجري مطابقة مع الشاعر الفرنسي ألفريد دوفينيه (Alfred de Vigny) في قصيدته «موت ذئب» ذات المنزع الفلسفي الرواقي:

Et, sans daigner savoir comment il a péri,
Refermant ses grands yeux, meurt sans jeter un cri.

ثم يتلو بيت المتنبي:

وُصُـولٌ إلى الـمـسـتـصـعـبـات بـسـيـفـه
ولـو كـان قَـرْنُ الـشـمـس مـاء لأوردا

ثم يعقد الشبه مع بيت فيكتور هيغو في قصيدته «جنود السنة الثانية»:

Ils eussent, sans nul doute, escaladé les nues.

درستُ اللغة العربية على رجال شداد. غلاظٌ إن اجترأ عليها أحد فثلمَ بناءها وشان جمالها، أو لم يحترم قواعدها.. كان الحاج باحنيني يغضب إن سمع جملة بها لحن، ويشفع قوله بجملة بالفرنسية: Mais non. ولست أستطيع أن أكتم ابتسامة وأنا أتذكر الفقيه عبد الرؤوف البرنوسي رحمه الله، أستاذ **الألفية**، **ألفية** ابن مالك في قواعد اللغة، إن سأله تلميذ عن ضبط كلمة بالشكل،

والساعة ساعة امتحان، فيدير رأسه ذات اليمين وذات الشمال، علامةَ النفي إن كان بها لحن، فإذا أعيته الإشارة نطق بالقول: «صيحة في واد ونفخة في رماد» أو يشير برأسه بالإيجاب، فإذا هو تبيّن الحيلة ردّد في صوت خفيت: «أمسكوا عن الكلام، وأسمعوني صرير الأقلام».. أو هو يرسل هذه القاعدة النحوية التي تحمل في طيّها حكمة:

قوْمي تجمّعوا وبقتلي تحدثوا
لا أبالي بجمعهم كلُّ جمع مؤنثُ

وكان من تلامذة بحر من أعلام اللغة، وأحد رجالات الرباط الأفذاذ، وواحد من أعمدة الفقه بالمغرب، المدني بن الحسني. وكان حريصاً على التذكير بدَينه لأستاذه، تغمدهما الله بواسع رحمته.

ثم درسنا **الألفية** أو جزءاً منها على يد أحمد ابن سودة رحمه الله.. وكان ابن سودة يشفع دروس **ألفية** ابن مالك، ببيت لجرير ذهب مذهب الأمثال:

وابن اللبون إذا ما لُزّ في قرَن
لم يستطع صولة البُزل القناعيس

وكيف يقوى الضِّعاف على مجاراة الأقوياء إن هم جمعتهم المجامع؟..

لا أزال أذكر يوماً وقد مجدت الغرب وحضارته أن عاتبني وهو يتلو عليّ الآية: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ...﴾، (سورة البقرة، الآية 93).

وأذكر الفقيه عبد الرحمن بن موسى تغمّده الله بواسع رحمته،

ونحن نحفظ القرآن بعد صلاة الفجر، ثم وهو يبدي ويعيد في قواعد التجويد من حروف القلقلة والغُنّة والإمالة، فإذا غلبه التعب أسدل أصابعه على وجهه كمن ينظر إلى الطلبة وقد غشيته غفوة، ثم ينتفض وهو يردّد البيت التالي:

العلم صيدٌ والكتابة قيده

قَيّدْ صيودك بالحبال المُوثَقة

فإذا انبسط أزجى النصيحة وهو يستشهد بهذين البيتين اللذين ذهبا مذهب الأمثال:

إذا هبّت رياحك فاغتنمها

فلكل خافقة سكون

إذا درّت نياقك فاحتلبها

فلا تدري الفصيل متى يكون

وإن آنس الاهتمام رتّل القرآن بصوت شجي. رحم الله ابن موسى، كان رأس مدرسة في التجويد.

أفلا تذكرُ الأستاذ عبد الكريم حليم وهو يستقي مادة نصوصه من **فيض الخاطر** لأحمد أمين، أو من **فجر الإسلام وضُحاه**، وأنت تجادل في إعراب كلمة بيت هل هي خبر لكان أو مبتدأ لجملة، وأن الخبر، والحالة هذه، هو الجملة الاسمية «بيت الحكمة» في الجملة التالية: «وكان أكبرُ مكتبة نُقِل إلينا خبرها في ذلك العصر، بيتَ الحكمة»، وتُلحّ في اللجاج وتزعم أن خبر كان هنا، هو الجملة، وليس كلمة «بيت»، وينبغي أن تُرفع حسب زعمك. ثم تصبح الجملة مادة للتندّر تتلوها أنت وصحبك لنطق أستاذك الذي يغلب عليه الإشمام.

أين أنا ممّا أسمع في هذا المؤتمر بكوالالمبور من عربية ركيكة.. بل أليس التخاذل الذي أرى نتاجاً لتفريط العرب في لغتهم؟.. هل يستطيع العرب أن يقولوا مثلما قال الأديب الإنجليزي توماس كارليل في كتابه **الأبطال**، والذي أفرد فيه فصلاً لرسول الإسلام: لو خُيّرنا نحن الإنجليز بين الهند وشكسبير، لاخترنا -إلّا من بعض التجار- شكسبير على الهند.. هل يستطيع العرب أن يقولوا ذات القول لو هم خُيّروا بين البترول والمتنبي؟.. هل سَيُفضّلون نجمهم الساطع، مالئ الدنيا وشاغل الناس، أم سيميلون إلى برجهم، برج العرب، أو إلى أبراجهم ونخيلهم على ضفاف الخليج.. نخيل بنايات فارهة في الفُجيرة على شطّ الخليج، أو فجورهم في ماربيا ولاكوت دازور.

هل تذكر وأنت صبي في قريتك تلك النائية، الفقيرِ أهلها، ما كان معلّموك يلقنونكم من مبادئ وأخلاق.. ها أنتذا في مدرسة من مدارس قصر السوق تردد:

بلاد العُرْب أوطاني   من الشام لبغذان
ومن نجد إلى يمن   إلى مصر فتطوان

وها أنت تترنم بنشيد في نصرة فلسطين:

أخي جاوز الظالمون المدى
فحق الجهاد وحق الفدا
أنتركهم يغصبون فلسطين
مجد العروبة والسؤددا

وها أنت وأترابك تتردّدون على مصطبة القسم تتلون شعرَ أبي القاسم الشابي:

إذا الـشـعـب يـومـاً أراد الـحـيـاة
فـلا بـدَّ أن يـسـتـجـيـب الـقـدر. .

وشعر مُفدي زكريا، صناجة الجزائر وفخرها:

قَـسَـمـاً بـالـنـازلات الـمـاحـقـات
والـدمـاء الـزاكـيـات الـطـاهـرات
والـبـنـود الـلامـعـات الـخـافـقـات
في الجبال الشامخات الشاهقات
نـحـن ثـرنـا فـحـيـاة أو مـمـات
وعقدنا العزم أن تـحـيا الـجزائر

أو قصيدة:

عليك مني السلام	يا أرض أجدادي
ففيك طاب المقام	وطاب إنشادي

أو نشيد:

مـغـربـنـا وطـنـنـا روحـي فِـداه
ومـن يَـدُسْ حـقـوقـه يـذقْ رداه

أين الخطأ؟ أين الخطأ بين ما أسمع وما كنت أُنشئت عليه؟ أم أنا الخطأ، لأني آمنت بما أنشأتني عليه المدرسة من رُؤى، وكان حريّاً ألّا أؤمن بها لأضمن لنفسي النُّجح في مسار الحياة العامة، أسوة بمن «نجحوا».

كم كانت نشوتنا عظيمة ونحن أطفال نزدهي بانتصار المسلمين في حرب رمضان أو حرب أكتوبر، ونردِّد أرقام طائرات الفانتوم التي

سقطت.. أو بعدها ونحن في الجامعة نتلو شعر أحمد فؤاد نجم يغنيه الشيخ إمام:

«سقط الموت بعلم أمريكا..»

ثم نردف من أشعاره:

مصر عروسة وُبكرة عريس

والعُشّاق، إحنا العشاق..

ولكني لا أجد ريح مصر.. ما اعترى مصر؟ أين مصر التي في خاطري، وفي خاطرنا جميعاً.. مصر محمد عبده وقاسم أمين وطلعت حرب ولطفي السيد وطه حسن والعقاد وأحمد أمين وتوفيق الحكيم.. ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم.. وجمال..

أشعر بَمغْص. أُدراي الألم.. يتوالى على المنصة الوزير الأول لماليزيا السابق أحمد ماهتير. يُسَرّي عليّ لأنه يتكلم لغة أفقهها.. لغة تحمل معنى والتزاماً. المسلمون مليار شخص، لو عُبّئ منها ثلث هذا العدد لكان قوة يُعتدّ بها. وللمسلمين ثروة البترول لو رُصد ثلثها لا غير، لزُعزع العالم..

أنظر إلى الخطيب أمامي. هو طبيب، وهو صاحب مهنة، وهو يعرف ما يصنع بيديه كما يقول الفرنسيون، وهو انتهى إلى المنصة التي أمامي عن طريق محن واختبار، الحُكم فيها للشعب والحَكَمُ فيها الشعب.. ليس بالضرورة أن يكون من ينتهي إلى تلك المنصة الأخيار من القوم، ولكن الذين يبلغونها ليسوا هم الأسوأ.. الخطيب أمامي، استمعت إليه في محاضرة بجامعة جورج تاون يستشهد بشكسبير في رائعته **روميو وجولييت** وهو يحلّل ما يتوزعنا

من ارتباط بأصولنا، وحداثة ليست من صنعنا.. أما العرب الأقحاح فهم يجدون العنت في قراءة نصوص مكتوبة لهم، ومضبوطة بالشكل، من لغتهم..

ليست اللغة غاية في حدّ ذاتها، ولكنها كانت أداتي في التحليل، تُنبئ عن أعراض غائرة في جسم العروبة...

مصر. تُلح عليّ مصر. أتذكر في أعقاب مؤتمر حضرته في ديسمبر من عام 1994 بأثينا حول نزع السلاح في سياق ما كان يُسمّى بمسلسل السلام... أثارني جنرال مصري، كان حَسَن المَعْشر، جميل الأحدوثة، وكان كثير الدعابة مع المشاركين من الإسرائيليين. أثارني من أجل ذلك، إلى أن كانت ليلةَ الوداع، وقصفنا، أنا وهو وصديق لي مغربي، درسنا وإياه سيصبح قطباً من أقطاب المخابرات.. شربنا حتى عبثت الخمرة برؤوسنا فسألت الجنرال المصري:

- أنا لا أفهم تصرفك ولا موقف مصر..

وكأني أصبته في مقتل.

- آه، أخ حسن، هل تحسب أني أؤمن بكل هذه اللقاءات؟ شاركت في كل الحروب. في 56، في 67، في 73، ومات لي أصدقاء في كل هذه الحروب، هل تحسب أني أتصرّف كأن لا شيء قد حدث.. ماليش دعوى بالكلام ده كله. أنا عايز قهوة زريفة (ظريفة) مع المدام والأحفاد.

هتكتُ سِتره، فعقّبتُ:

- ما يمثّله جمال بالنسبة إليك؟

نظر إليّ في أسى وكأنما قد تبدّد أثر الخمر لينبئ عن جرح غائر:

- هو الفرصة اللي راحت (أو ضاعت، لا أذكر).

لم يكن مؤرِّخ مغربي حصيف مُجانباً للصواب حينما قال إن الأمم التي خرجت من التاريخ لا تعود إليه، والعرب خرجوا من التاريخ.. قال ذلك في مساء عمره وقد نعت العرب في ربيع حياته لمّا أن محّص الأيديولوجيا العربية بأنهم المُخَلَفون في مدارج التاريخ، هكذا أترجم تعبيره بـ Les cancres de l'Histoire عوض كسالى التاريخ، وهو التعبير الذي لا يفي بالغرض حين استعماله بالعربية.

اللغة الركيكة، التواطؤات، الـ«شوبينغ»، كل أنواع الـ«شوبينغ»، حتى الأسلحة المتطورة، الكازينوهات، الرقص الشرقي، هي أعراض لخروج العرب من التاريخ..

تزداد حدّة الألم. أخرج لأستنشق الهواء. أنقع من كأس ماء. أجلس في ردهة القاعة وأسترخي على الأريكة..

ماذا سيبقى من العرب ومن العروبة؟ هل ستتحول اللغة العربية إلى أصوات لا تحمل معنى، أو لغة ركيكة مجتثّة الأصول من عبقريتها هي ترجمة حرفية للغات الأجنبية، أو ما أسماه أحد الإسلاميين المغاربة بالعربوفونية؟ هل عفّت حداثة المظهر، أو التحديث المستعار على القيم العربية الأثيلة؟.. هل ستتدحرج هذه اللغة في مهاوي الانحدار حتى تصبح ذكرى، ذكرى تثير الإشفاق

والسخرية حتى ليتوارى عن الأنظار من يرعى حُرمتها، كأنما به ظِنَّة أو تحوم حوله شُبهة؟ وهل سيُستنسخ لها من الضرائر ما يُضيّق ساحتها؟.. أتكلّم عن لغة عالمية، لها وضع اعتباري لدى المسلمين.. لغة لها الصدارة في لغات الإسلام.. كيف تتولى هذه اللغة وتجافي عبقريتها؟

هل أقبل أن يذهب تعلُّمي للغة العربية سُدى؟.. لأن تعلُّمها من عدم تعلُّمها، في مسرى الحياة العامة سيّان.. هل أكتفي بخطرات أقرؤها بين حين وحين، مع أقلية، تعيش كما تعيش الأقليات، تمشي على استحياء، فندفع بالاعتذار لمعرفتنا للغة العربية.

ثم ما القول في قيم العروبة، هل يذهب كل ذلك هباء؟ هل هناك أمة رفعت الجود مكاناً سامقاً في مدارج القيم كما فعلت العروبة؟ وما الإباء، أليس هو ما هزأ بموازين القوى، وأدال العرب على أقوام أسمى منهم في مراقي الحضارة.

لم أكن أُدرج الإيمان آنذاك في عوامل التحول التي غيّرت العرب وغيّرت من خلالهم معالم العالم، ولم أكن لأدرك معنى العزم آنذاك، وهي الحالة التي تجتمع فيها النية والتصوّر والإرادة، مشفوعة بالتواضع والصبر.

أنقل بأسى ما كتبه إنجليزي أحبَّ العرب وقيمهم وأفرد لتجربته بين ظهرانيهم كتاباً لما أن قطع الربع الخالي، ويلفريد ثيسيجر في

كتابه **الصحراء العربية** سنة 1946، نقل أنه في مسرى ترحاله بالرُّبع الخالي مع القافلة التي كانت ترافقه، كان كلما بلغ منهم طُلَعةٌ بئراً لم يشرب منها حتى يلحق به صحبه. كان هؤلاء لا يستأثرون بشيء دون صحابهم. ومرة طال بهم السُّرى حتى أجهدهم السير ونال منهم الجوع، فقرِموا (اشتدت شهوتهم للحم) وكان أن اصطادوا أرنباً، فتلمّظت شفتا صاحبنا للحم الغريض، وكان أن مرّت قافلة فاستوقفها صحبُه، واستَقَوا من أهلها الأخبار وتبادلوا معهم أطراف الحديث، ثم قال قائلهم: لا شكّ أنكم وقد طوّفْتم هذه القِفار قد نال منكم الجوع..

قالوا: أي والله.

فأجاب أصحاب القافلة التي بها ثيسيجر: فلقد حضَّرنا طعاماً أنتم به أولى.

لم يفهم ثيسيجر لِم يؤثر هؤلاء غيرَهم وهم أحوجُ الناس إلى طعام.

لن أشتط في القول فأقول مثلما قال عربي قحّ عبد الله القصيمي عن بني جلدته من أن العرب ظاهرة صوتية.. هم بقايا لشعب عريق، وأمة صحيحة كما كان يقول عنها طه حسين.

كنت أبحث عن بقايا هذه الذهنية في الصحراء، كما لو أن الصحراء هي المتحف الذي يحفظ ما تبقّى من هذه العقلية.. كنت كلِفاً بالصحراء أجوب فيافيها، وأقرأ آدابها، وأجمع أهلها فيما سلف من عمري، في بعض الثغاء من مهرجان كنت أشرف عليه.. هناك اكتشفت إبراهيم الكوني، أديب ليبيا النِّحرير. وتعرّفت إلى شاعر ومغنٍّ كبير من الطوارق، ومن صحراء جانيت بالجزائر، عثمان

بالي.. لا أزال أذكره وقد حلّ وأسرته ونحن على كثيب رمال مرزوگة.. وكان له موعد مع الصحراء، في صحراء جانيت، حينما جرفته السيول. رحمه الله.

وهل أنسى هذا المُغني الحيِّي من أبناء بشار، عَلّا (بتفخيم اللام)، الذي لم يكن ليرفع عينيه تأدُّباً وحياء.. كان يعزف العود، وكان تقطيعه شبيهاً لِمَا بتافيلالت من تقطيع وغناء.. وكان أخواله من قصر من قصور الريصاني (أو الريساني من الرأس، على الأصح، ريسان الماء)، فلما أن زارهم، ذبحوا ثوراً.. ولم يفُت عَلّا أن قال: إنها أعظم هدية في حياتي، وأجمل يوم فيها.

كنت أرى في الصحراء أرضاً للّقاء.. رباط الصحراء هو فكرة. الصحراء تهزأ بالمكان.. وكنت أجري وراء سراب.. أضحت الصحراء مِزَقاً تأبى على بنيها أن ينتقلوا فيها.. بل صاروا يقتتلون من أجل خريطة، ومن أجل مكان يضيق بما رحُب.. كنت أريدها نوراً ينداح ليملأ الأرجاء بلا تمييز بين الرُّبى والآكام والكثبان والآطام..

أرتشف شربة ماء. أدخل القاعة.. ولكن الألم برّح بي. أستأذن مرافقاً من الوفد في المغادرة. أذهب عند الطبيب. يفحصني، وتحملني سيارة إسعاف على سبيل الاستعجال.. غبت لحظتي عن الزمن. وتوقّف سيل تَوَهُّماتي. دخلت المستشفى. فحصني الطبيب، وشخّص داء الزائدة، وقرّر إجراء العملية على عجل...

واستفقت على آلام الجرح... ولكنّ شيئاً أخذ يعتمل في نفسي القلقة..

في فترة النقاهة التي أمضيتها بمستشفى بكوالالمبور انغرست بذرة في فؤادي. .

كان الطبيب حفيّاً بي. وكان أن رُزق ولداً، ولكنه رأى ألّا يبرحني. وسألته والطبيبة التي كانت تساعده لِم أنتما حفيَّان بي؟

أجابا: لأنك أخ في الإسلام ولا يمكن أن نتركك وشأنك وقد غادر وفد بلدك.

آه، لو يعلمان كم من سماوات، وكم من بحار تفصلني عن الإسلام.

أنغضت برأسي. .

مساء، وأنا أشاهد التلفزيون، ولا أفقه شيئاً من اللغة المتداولة في ماليزيا، شاهدت تجمّعاً كانت حدثتني عنه زوجة ماهتير وقد عادتني بالمستشفى، وقالت إنها أصرّت أن تظل واقفة رفقة زوجها لأكثر من ثلاث ساعات تضامناً مع العراق، رغم ما تعانيه من آلام المفاصل، تنديداً بالحرب الظالمة التي تأبى الولايات المتحدة إلّا أن تشنّها. . شاهدت في التلفزيون صور ذلك الجمع الهائل، وفجأة قدّم التلفزيون حواراً لعراقي مقيم بماليزيا، تكلّم بالإنجليزية قائلاً:

- الآن أفهم ما معنى أن يكون المرء مسلماً.

سمعت القول. . وانسلَّ كما تنسلُّ البذرة في عمق الأرض.

بعد أن بلَلْت من دائي، التحقت بأعضاء الوفد لقمة جامعة الدول العربية بشرم الشيخ بمصر، لم أستطع أن أحضر اللقاءات لِما كنت عليه من تعب. . شاهدت بعضها في التلفزيون، ومنها ملاسنة

استعرت بين قادة عرب السلالات (بني ضبّة) وقادة عرب الثكنات (بني كلاب)..

ركاكة اللغة والملاسنة التي سارت بذكرها الركبان، عَرَضٌ لداء وبيل. عَرَضٌ لما كان يُهيَّأ من تواطأت طوّحت بالعراق.. أسابيع معدودة بعد ذلك، كان العلم الأميركي يرفرف في أم قصر جنوب العراق مؤذناً ببداية الاحتلال ودخول المنطقة نفقاً مظلماً...

وتذكرت جملة للأديب الإنجليزي جورج أورويل حين قال إن النضال من أجل لغة إنجليزية سليمة ليس أمراً اعتباطياً... أو شمعون بيريز في كتاب له إذ يقول إن الرهان الأكبر على الدولة العبرية وقد فرضت وجودها وسط «محيط مُعادٍ»، هو أن تحافظ على لغتها...

لم أسمع آنذاك كلاماً مماثلاً من نسل بني كلاب ولا ذرية بني ضبّة.

زمان الوصل بالأندلس. . أجوب ربوع الفردوس المفقود ربيع 2007، أنا وبُني وصديق لي، فلا أقوى على حِمى إسبانيا، وأنا لا أتكلم الإسبانية، بلا هادٍ ولا دليل. . هناك بإشبيلية وبقرطبة. . والمطر يسّاقط مدراراً، وبنفسي غُصّة.

أنا حزين وجريح، ولا أفهم ما جرى، وحينما أسلو، يعاودني الليل بعازب الهمِّ فيجثو عليّ، فأستيقظ مضطرباً فزعاً. لم يكن أساي من أجل أندلس، ولا صدى زفرة أمير موتور، ولا من أجل قبيل مهضوم. كان من أجل نفسي الجريحة. . قوبلت بالإهانة، في مسرى عملي، كوالٍ بمكناس، ولم يكن صدري ليتّسع لها وقد كنت قبلها قاب قوسين من الرحيل. أهي نزوة، أو لعبة، أم أسلوب تدبير؟ هل هي حالة اجتماعية وتاريخية تجدُ مقابلاً لها في تواريخ أمم أخرى تتجاوز الأشخاص؟ لا أذكر من **روح القوانين** لمونتسيكو إلّا نُتَفاً عن الحكم الفردي، وكيف أن المَلكيات تغور في الاستبداد كما يصبُّ النهر في البحر. . ولكني مذاد عن كتبي، مذاد عنها لأن مكتبتي أضحت تُحَفاً وليست رفقة أستأنس بها، ولأني ارتضيت حياة الجاه والسلطان، وخلْتُني جزءاً من منظومة. . . لقد قرأت كُتُباً كثيرة

ولم أعِها. فهل أعي الآن وقد نطق لسان الحال؟ هل كنت أستطيع أن أدرك فحوى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، (سورة العلق، الآيتان 6-7). وهل كنت لأدرك تتمتها: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾، (سورة العلق، الآية 8)؟ كانت بذهني غشاوة لأنفذ إلى ذلك كله.

لقد وعدت أن أبوح ولكني لا أستطيع.. أحوم حول الحِمَى، وأستجير بالإشارة عوضاً عن العبارة..

لطفك أيها القارئ... اعذرني إن أنا تكتمت.. ففي الإشارة ما يغني عن العبارة، وفي بعض العبارة ما يُجلّي الحقيقة.

كنت في موعد من حياتي غيّرها رأساً على عقب. قبيل ذلك التاريخ هجمت أفواج من ساكنة دور الصفيح من حي سيدي بابا بمكناس على مقرّ الولاية، وفرَّ وكيل الولاية ورئيس الشؤون العامة، وبقيت لوحدي رفقة رجل من رجال السُّلطة، وآخر من وزارة الفلاحة، كان يهيِّئ معنا الملتقى الفلاحي. وأشهر المتظاهرون السيوف والسكاكين، وجرحوا رجل أمن، ورأيته يمسك ذراعه والدم يسيل منها فلم أتمالك أن أصدرت الأمر بكلمة نابية بالدارجة المغربية:

- أجهزوا عليهم.. أولاد...

أتريد التعبير الذي استعملته بالدارجة؟ حسناً.. رحماك، هلّا أعفيتني، فلقد رقمته وشطّبت عليه. وهل تستقيم بذاءة التعبير مع روحانية المقصد في هذا البوح؟

ولكنّ ضابطاً من رجال الأمن يبادرني:

- نحن على استعداد كي نُجهز عليهم، وهل فكّرتَ في الأمر مَلِيّاً. هم مُسلّحون، ولا نأمن أن يكون هناك جرحى، بل قتلى.. ولهم دور الضحية مهما فعلنا، ولن يغفر لنا أحد صنيعنا رغم أن الولاية محاط بها، ورغم أنهم هدّدوا موظفين، ورغم أنهم جرحوا رجل أمن..

وأتريّثُ لحظة.. ثم أمسك البوق وأكلمهم:

- الخوة، صليوا على النبي، عاودوا صليوا عليه (أيها الإخوة صلوا على النبي، صلوا عليه مرة أخرى).

وتتوالى الصلوات على النبي، ويخمد بركان غضب الحشد الهائج، كأسد مُكَشِّرْ ما يلبث أن يجثو على ركبتيه أمام الفهلواني.

لَكَ مني أيها الضابط، لست أسميك صوناً لك. لك عرفاني أنك جنّبتني حمام دم كان ألّا أخرج منه سالماً. وكيف أحمل وزر جرحى وقتلى من الفريقين؟

كان يمكن يومَها أن أموت نداء للواجب.. أو ما يُنظر إليه أنه واجب، ولذلك لم أفهم تخرصات حُكْم نظر عابر، وصدى افتراءات، ولم أفهم أن يُبخس عمل قمت به في تنظيم ملتقى للفلاحة، وبذلت جهداً جهيداً حتى مَجِنت يداي وانتفخت أخمص قدماي؟ لم أفهم، وكان عليّ أن أفهم ما هو أهم، هذا الأهم مِمَّا يزال مستعصياً فهمه على الكثيرين حتى من ذوي الفهم. هي طبائع الاستبداد.

كنت أتعافى بالأندلس. قد يستغرق الأمر زمناً قد يطول أو يقصر.. كنت، آنذاك، شارد الذهن الوقت أغلبه.. أحدّث ولديَّ عن الأندلس فينفران مني لأنهما لا يعرفانني.. لم أعش معهما إلا

خطرات. كنت غائباً عنهما. . سافرت مع ولديَّ لأتعرّف إليهما وأكتشف أمرهما، ولكنهما نفرا مني:

- هل تعرفانِ. . أصِخِ السمع يا إسماعيل (أسافو[1]) وأنتِ يا سامية (تين وول[2])، هذه الخيرالدة، ألا تُذَكِّرُ كما بصومعة حسّان وبمسجد الكُتُبية. إنهم أجدادنا من الموحّدين الذين بنوا. .

ولكني كنت أخطب في فراغ. . قبِلا بجهد جهيد أن يصعدا معي المئذنة. . التاريخ، الأندلس، لا يعني شيئاً بالنسبة إليهما. هما أتيا معي لإسبانيا من أجل متجر الكورتيس إنجليز للتبضع. . وهما قبلا أن يأتيا مع والدهما لأنه من يملك المال، أما ما عدا ذلك فأضغاث أحلام.

ولم تتمالك ابنتي سامية وقد أجبرتها وأخاها على زيارة القصر المصاقب للخيرالدة أن صاحت:

- إنه أسوأ يوم في حياتي. .

عدت لوحدي إلى باب من أبواب الخيرالدة المفضي إلى الصحن. كان من نُحاس، وكان بها كتابات بالعربية دقيقة لم يَتَأتَّ أن تُمحى حينما تمَّ محو كل الآيات على الأسوار وكل الكتابات بالعربية. . كنت مكباً أسعى أن أفكّ شفرتها حينما بادرني رجل مسن، عليه وقار. .

---

(1) أسافو هو المشعل بالأمازيغية ويعني كذلك الشخص الذكي، وكان لقب المهدي بن تومرت.

(2) تين وول: حرفياً هي صاحبة القلب، أو من ملكت شغافه، وتعني العزيزة، أو قرة العين.

فاستدرت تجاه مرافقي ليترجم.

- يقول إن الخيرالدة مِلك لإسبانيا.

- قلت نعم، وهي مِلك للبشرية كذلك..

وانبسطت أسارير الرجل..

ثم أضاف متبرماً:

- هناك الكثيرون ممن يزورون الخيرالدة من المسلمين يقولون إن هذا التراث مِلك لهم..

شفعت، لأبدِّد توجّسه:

- هو مِلك للذين يحسنون العناية به وتعهّده.

وافترقنا ووعدنا الرجل أن يريَنا أشياء لا يعرفها الكثيرون. كانت الساعة ساعة الأصيل، وكان يعسر أن ندخل دهاليز وَعَدَنا باستكشافها. كان مهندساً معمارياً، وكان قيّماً على المكان، أو محافظاً للخيرالدة.. وضرب لنا موعداً عند الغد في بيته الذي يوجد داخل القصر. كنا في الموعد.. وطرقنا الباب ولم نجد مستمعاً، وخِلناها خدعة.. فإذا الرجل يَعِنَّ لنا بعد حين ويُدخلنا في دهاليز حيث التراث الموحدي واضح غير مثلوم.. كان الرجل محبّاً لهذا التراث، كأنما العالم كله يبدأ من إشبيلية وينتهي إليها. وأين قصور الحمراء من إشبيلية، كان لا يني يردّد.. ثم توقفنا عند نافورة، وكان الماء منها ينبجس، فاستدار نحونا سائلاً: أي شيء هذا؟ قلنا: نافورة.. قال: هي أجمل موسيقى على الإطلاق... وكانت كلمة الوداع، وكانت كلمة السرّ كذلك..

غداة ذلك اليوم قصدنا قرطبة وجامعها.. لأمر ما لم نثبت أنا وصاحبي فنزعنا أحذيتنا ونحن ندخل المسجد الذي تحوّل إلى

كنيسة، وجُلنا في أرجائه رغم برد الرخام.. وفجأة نهرنا رجل أمن وقد أدرك قصدنا من نزع الأحذية صائحاً فينا: إن هذا المكان ليس بمسجد. قال له صاحبي: هو بيت الله، وأضفت: وديننا يوجب علينا احترام كل الأديان...

كانت قصيدة شوقي تتردد في صدري ولو أني نسيت أغلبها، «قم ناج جِلّق»:

مررت بالمسجد المحزون أسأله
هل في المصَلّى أو المحراب مروان
تغيّر المسجد المحزون واختلفت
على المنابر أحرار وعُبدان
فلا الأذان أذان في منارته
إذا تعالى، ولا الآذان آذان

هناك، بالأندلس، قبل سنين عديدة بدأتِ المصالحة مع الحضارة الإسلامية. مصالحتي معها.

ديسمبر 1997. كنت ذهبت مع ابنتي الكبرى سلمى من زواجي الأول إلى قصور الحمراء.. ذهبت وحيداً ذاك الصباح القارس، وجلت في قصور الحمراء.. كنت أصْدُر من فكرة أن الحضارة الإسلامية إن هي إلّا امتلاك لحضارات سابقة، البيزنطية والساسانية، والتعبير عنها باللغة العربية. هل هو رأي أصيل كان لي أم أني قرأته في موضع ما وتبنّيته؟ ولكن أساس هذا الرأي كان ينهار أمام ناظري وأنا أذرع جنبات قصور الحمراء.. أية حضارة هذه؟ أية عبقرية؟..

هناك حضارة إسلامية راقية، أرى تمثّلاتها الهندسية، تزاوج بين الدقّة والجمال، بين العقل والروح.. رأيت كم تزري الحمراء بقصر كارل الخامس الذي بناه والمصاقب لها.. بعد الزيارة دخلت أول حانة، وشربت. شربت من انتشاء... أرفع رأسي لأقول للنادل التعابير القليلة التي أعرفها من الإسبانية:

- Otra cerveza por favor.

(بيرة أخرى من فضلك).

فيلتقي نظري بخربشات على زليج البار، هي شعار بني الأحمر الذي حسبه الصنّاع خربشات أو رسوماً.. لا غالب إلّا الله.. في حانة، وأواري ابتسامة..

لو كنت ذات سَعة لاستضفت كل سكارى الحانة.. كنت أريد أن أصيح على آثارهم: اليوم أنتم في ضيافتي.. أنا سعيد بما اكتشفت.. سعيد جداً.. ولكني كنت ذا عُسر.. كنت صحافياً أتبلَّغ بما أكتب..

سنوات بعد ذلك، كان الشاعر محمود درويش رحمه الله ضيفاً عندي ببيتي بشاطئ الهرهورة، وحكى لي تجربة مماثلة لما أن زار الأندلس أول المرة وشُده لِما رأى، فقصد حانة واستضاف مُرتاديها..

قلت له: الفرق بيني وبينك أنك استضفتهم وأنا لم أستضفهم.

ردّ ممازحاً:

- أنت الآن تستطيع أن تستضيفهم؟

رددت:

- وهل نملك شيئاً؟ هي السياقات التاريخية تملكنا . .

أفتح اللحظة ديوان **أحد عشر كوكباً** على «آخر المشهد الأندلسي» . . أقرأ :

«ذات يوم سأجلس فوق الرصيف . . رصيف الغريبة
لم أكن نرجساً ، بَيْدَ أني أدافع عن صورتي
في المرايا . أما كنتَ يوماً ، هنا ، يا غريب؟
خمسمائة عام مضى وانقضى ، والقطيعة لم تكتمل
بيننا ، ههنا ، والرسائل لم تنقطع بيننا ، والحروب
لم تُغير حدائق غرناطتي . ذات يوم أمر بأقمارها
(. . .)
لم أكن عابراً في كلام المغنيين . . كنت كلام
المغنيين ، صلح أثينا وفارس ، شرقاً يعانق غرباً
في الرحيل إلى جوهر واحد . عانقيني لأولد ثانية
من سيوف دمشقية في الدكاكين . لم يبقَ مني
غير درعي القديمة ، سرج حصاني المذهب . لم يبقَ مني
غير مخطوطة لابن رشد ، وطوق الحمامة ، والترجمات . .
كنت أجلس فوق الرصيف على ساحة الأقحوانة
وأعدّ الحمامات : واحدة ، اثنتين ، ثلاثين . . والفتيات اللواتي
يتخاطفن ظل الشجيرات فوق الرخام ، ويتركن لي
ورق العمر ، أصفر . مرَّ الخريف عليّ ولم أنتبه
مرّ كل الخريف ، وتاريخنا مرّ فوق الرصيف . .
ولم أنتبه!» .

وهل سأنتبه يوماً؟ أنا، أنا الجريح؟

بيننا وإسبانيا زواج مختلط، ولنا أبناء مشتركون.. كذلك قالت لي كلمة السرّ التي نطق بها ذلك الإسباني الذي ظلّ وفياً لموسيقى النافورة. نعم الخيرالدة إسبانية، وهي كذلك إسلامية.. وإسبانيا إسلامية، في جانب منها.. كنت أريد أن أُطَمْئن محافظ الخيرالدة أنني لا أزمع قطع البحر وحرق السفن «لأفتح» الأندلس، وأن العبور، إن كان ثمة من عبور، يكون داخلياً، أن نستعيد روح تلك الحضارة التي مزجت بين العقل والروح، بين الدقّة والجمال، وآخت بين الأديان.. لنا تراث مشترك.. لم أكن أعرف قصة الموريسكي آنذاك هذا الذي نَصَبَتْهُ محاكم التفتيش قرباناً يؤدّي عن حضارة إنسانية فريدة. ولو كنت أعرف قصته لحدّثته عنها لأنه كان مفعماً بالتاريخ. الموريسكي ابن إسبانيا الأم وقد ألقى به أب غليظ يأبى عليه إلّا أن يكون مسيحياً صرفاً.. هذا الصبي الذي ألقى به أبوه في قارب متهالك، نحن من رعاه في تونس وزغوان ووهران والرباط وتطوان.. وأمه لن تتنكر له إلى الأبد، وإن هي نسيته أو تناسته...

بيننا وإسبانيا أولاد مشتركون، ومشاغبون...

ولعلّ المحافظ أن يسمعني، أو صداه..

وقفت فيما بعد على فكرة لفيلسوف إسبانيا الكبير أورتيجا إي جاسيت (Ortega y Gasset): «على العالم أن يستمع إلى إسبانيا لأن لها ما تقول للعالم».. توقفت كثيراً عند هذه الجملة، وراودتني نفسي أن أضيف: إنْ هي تصالحت مع ذاتها. عليها أن تبرأ كلية من

مخلفّات أيديولوجيا محاكم التفتيش. عليها أن تعترف بالبُعد الإسلامي فيها.

عُذْتُ من الأندلس شبه مُعافى وقد أخذتُ أبرأ من «المخزن» كما يبرأ المدمن ممّا كان يتعاطاه..

لم يعد من هوى، وإنما هو واجب..

كان حُلُماً في الكرى..

توضّأت ولبست الإحرام، وعدت إلى مقعدي من الطائرة. أنوار تتراءى من بعيد، هي محطتنا، والظلام يلفّها. عمّا قريب سيتنفس الصبح.. عمّا قريب سينبلج النور.. وأغمضت عيني فرأيتُني صبياً في بلدتي قصر السوق كما كانت تُسمّى آنذاك..

لا تزال خيوط الشمس لم ترتسم على أديم الأرض أو هي تصل واهنة تصارع الظلام. أُراني في تلك الآناء وأنا طفل صغير يرتقي دَرْجاً من الطوب، في واحة من واحات زيز، في هذه القرية التي أرادتها الإدارة الاستعمارية المركز الإداري لمنطقة تافيلالت، قصر السوق، أرتقي الدَّرْج على عجل وأطرق أبواب النائمين في الغرفة والمصرية[1] وأنا أرتل آية القرآن: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (سورة الإسراء، الآية 78).

(1) هي غرفة تكون بالطابق العلوي، في معزل عن الغرف الأخرى. وأصل الكلمة بالسين، المسرية، أي مكان التسري، وحول النطق السين صاداً، فصارت المصرية، شأنها شأن مدينة السويرة، أي ذات الأسوار الصغيرة، وأصبحت تنطق الصويرة.

كانت جدتي قد نهضت مع الفجر من غرفتها المُشْرِفة على الحوش، وصلّت الصبح، ثم اقتعدت في زاوية من «الغرفة» تذكر الله، وكان تهجّدها قد أيقظني فاستويْت. كنت أثيرَها وحفيدها المدلل، وكنت أعتلق بها حتى ساعات النوم، فأنام على ركبتها وهي تُرَبِّتُ عليّ أو تحك على رأسي، حتى إذا شملني الكرى أسلمتني غير بعيد عنها في فراش على الأرض، فإذا تنفس الصبح استيقظتُ على وقع خطاها وصدى حركاتها وهمهمات تهجّدها.. أراها تحرّك رأسها وهي مسترسلة في وِردها لا تقطعه، فأنهض عجلاً إلى عمتي التي كانت تكبرني بسنوات معدودات، وأناديها «أختي» فأسعى أن أنزعها من النوم غير رفيق بها، وهي تمانع في حركة عنيفة متدثّرة بغطائها، ثم أُراني قد صعدت الدَّرج حيث والدي في الغرفة، فيخرج أبي فرحاً مبتهجاً وهو يسمع ندائي، نداء القرآن. رحم الله عمتي مَن كنت أناديها بأختي.

ثم أُراني أمشي وسط جِنان مدغرة متتبّعاً سواقيها إلى زاوية مولاي عبد الله بن طاهر رفقة جدتي وهي متدثّرة بإزارها الأبيض، تحجب وجهها بطرْف منه، نذرع مسافة نصف نهار مشياً إلى حضرة الولي الصالح، فإذا بلغنا قبّته بالخلاء في طرف الواحة سمعتُ جدتي وهي تهمهم بالتحية لساكني القبور: «الله يوسّع عليكم، أنتم السابقون ونحن اللاحقون»، فأتبع خطاها حتى الضريح، غير مدرك ما يجري، بيد أني مبتهج بتلك الأجواء، ومبتهج أنّا نحُلّ عند أختها بـ«القصر الجديد» (تُنطق القاف جيماً مصرياً) بمدغرة، فلا تُقصّر من ندى. رحم الله خالتي لالة زهور.

ثم أُراني في بيتنا بواحة بوتالمين وقد غشينا أنا وأخي عبد الله المدرسة نتردّد أثناء العطل على الكُتّاب لنحفظ القرآن.

ونختلف كلينا على الفقيه الدمثة أخلاقه مولاي الشريف، وعلى الفقيه الصارم مولاي امحمد بن السيد. . كان مولاي امحمد يبعث شعوراً مزيجاً من الهيبة والإعجاب، فهو حافظ للقرآن، وهو رجل صلب العود لا تلين له قناة، ما غالبه رجل إلّا غلبه، وله بطولات حين يسقي فدادينه فينازعه جيرانه الماء، فيغالبهم ويَهزمهم. ولا تزال الألسن تردِّد كيف أنه هزمَ واحداً من أولاد فرديوي، وما أدراك ما أولاد فرديوي، وهم حراطين صناديد، فكيف لمولاي امحمد، وهو الشريف الذي ليس له أن يحرث الأرض ويسقي الغرس أن يهزم واحداً من الحراطين؟ كانت هناك تمايزات لا ندركها، هي بقايا أحقاب من استعباد السود، كانت تذوب في ألعابنا نحن الصغار وعلى أرائك المدرسة وفي حِمى المسجد، وتبقى ماثلة في عالَم الكبار وفي علائقهم وأحكامهم.

وبمسجد بوتالمين كنت أذهب أنا وأخي عبد الله نصلّي مع أترابنا، وكأن صلاتنا ليست استجابة لدعوة الله وحدها ولكنها استشعار لبلوغنا. . . ولم تكن سنّي قد جاوزت الثانية عشرة، وكان عبد الله أخي يصغرني بسنتَين إلّا قليلاً. كنا نترسم طريقينا سوياً، وكنا نبادر دروبها مُخْتلِفَين. كنت ضعيف البنية، وكان قويَّها. كنت أمْيل إلى الهدوء، وكان مشاغباً بل متمرّداً. كان لاعباً ماهراً لكرة القدم، وكنت لا أحسن اللعب.

في ثانوية ابن طاهر كنا في موعد مع أستاذ لم يكن يرى الإسلام عبادة وحدها. كان يراه التزاماً، ومغالبة في معمعان الحياة. وجد هذا الأستاذ الجبْلي (من منطقة جبالة) ضالته في فتية مدغرة التي ما يزال أهلها على الفطرة لم تشغلهم أمور الدنيا لأنهم كانوا مذادين

عنها، ويقنعون من الحياة باليسير. كانت قصر السوق وأرجاؤها طَرْفاً من الأطراف قصيّاً، لا تبلغه موجات المذياع إلا مشوَّشة، وليس بها تلفزيون، ولا تزال أغلب ساكنتها تستنير بالمصابيح الزيتية، ويسمونها الكانكي عن Quinquet الفرنسية، أو القناديل، وقنينات الغاز. وقد تُفصل المنطقة عن العالم لأيام متتاليات حين تتهاطل الثلوج في الجبال وتُقْطعُ الطريق المؤدّية إليها... كانت هذه البساطة في العيش ما جعل فتية مدغرة على الفطرة يُقبلون على دروس السي عبد السلام الحمرواي بنهم كبير. كان يُحدّث عن هؤلاء الذين يردّدون نظرية داروين من أن أصل الإنسان قرد، فيفنّد دعواهم، ولم نكن قبلها سمعنا بداروين ولا دعواه. كان يحدّثنا عن طرائق المدينة وترف ساداتها وبؤس عمّالها. كان يحدّثنا عن ضرورة العدل في علاقات الإنسان.. ثم ما أقدم عليه ناصر، وكان لنا إعجاب هلامي به، حين امتدّت يده لعالِم يُسمّى بالسيد قطب فشنقه. ولم نكن ندرك أغلب ما يقوله أستاذنا، ولكننا كنا نصيخ السمع في اهتمام. وذاع صيت أستاذنا، وانتقل من رواق الثانوية إلى المدينة، أو قُل القرية، ليصبح خطيب الجمعة في مسجد متواضع صغير بناه محسن من حي تارْگة السيد فاسْكا، وهو الاسم الذي كان يطلق غالباً على من وُلد في عيد الأضحى، ولا يزال عيد الأضحى يُعرف في ربوع أفريقيا الغربية بتفاسكا أو تباسكا. وانتقلت جموع التلاميذ من مسجد بوتالمين إلى مسجد فاسكا حيث يؤمّ أستاذُنا، الخطيبُ المِصْقَع الذي لم يكن يخاف في الحق لومة لائم. وأخذت جنبات المسجد الصغير تمتلئ عن آخرها حتى ضاق عن المصلين...

قبيل كل اختبار كنت أردِّد ما كان يدعوني إليه والدي، سواء

أكان امتحاناً في المدرسة أم في الحياة: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾، (سورة طه، الآيات 25-28)، وأحرص جهد الإمكان أن أستيقظ الفجر لأصلّي مع والدي، لأن من صلّى الفجر كان، كما كان يردِّد والدي، في ذمة الله.

أذكر حرب أكتوبر 1973 أو حرب رمضان، وكنا نتابع أخبارها في المذياع فتهزّنا نشوة النصر (لم تكن قريتنا مربوطة بالبثّ التلفزي آنذاك) وتزدهينا فرحة العبور، ونتبادل، نحن التلاميذَ، كثيراً من المعلومات عن أخبار طائرات الفانتوم وعبور الدفرسوار.. وكان مصدر كثير من شعور الزهو ما غرسه في أفئدتنا أستاذ اللغة الفرنسية محمد بن العزيز، رحمه الله. وكأنما ليدلّل على أن الفرنسية واجب مهني والعربية واجب وطني، كان حريصاً زوال الجمعة أن يُحَفّظنا كثيراً من الأشعار بالعربية التي تحيل على الإباء، فعنه حفظنا طائفة من شعر أبي القاسم الشابي، وعنه حفظنا «بلاد العُرب أوطاني»... كان يؤمن بفكرة تسعى أن ترتفع عمّا يعتري مجتمعنا من تمايزات عرقية أو قبلية.. وكان هو نفسه أسمر البشرة، وكان السود عندنا عرضة للميز. كان أمازيغياً، وكان يؤمن بشيء أسمى من تلك التمايزات، وكان يجدُ في العروبة ضالته، لأن العروبة مثلما فهمها ويسعى أن يلقّنها لم تكن عرقاً ولكن أخلاقية. ثم انتقل بعدها إلى رحاب الإسلام. رحم الله السي ابن العزيز، فلقد كان أثره في نفسي قوياً.

ثم كانت منطقتنا مسرحاً لصراع مرير قبل ذلك التاريخ خلّف ندوباً غائرة. في شتاء سنة 1973 تسلّل مسلّحون قادمون من ليبيا عبر

الجزائر إلى منطقتنا وآووا إلى الجبل. وانتهت إلينا أصداء المواجهات بينهم وبين قوات الجيش. ولا أزال أذكر أزيز طائرة مروحية حطّت صباح يوم من أيام مارس في ثكنة مقابلة للبيت الذي كنت أسكنه، ولم أعلم من كانت تُقِلّه إلّا ثلاثين سنة بعد ذلك حين قرأت كتاب **أبطال بلا مجد** للمهدي بنونة، وأدركت أن الطائرة المروحية كانت تحمل جثة قائد التمرُّد محمود بنونة، والد صاحب الكتاب، ورفيقه في السلاح مولاي سليمان العلوي.. وانهال القمع على كل القُرى التي حلّ بها المتمرّدون وعلى أهلها، وانتقل أوار ذلك البطش إلى الثانوية، وكان من التلاميذ من فُتن ذووهم أو معارفهم أو تعرّضوا لصنوف من التنكيل وفنون من المضايقات.

وهكذا أضحت داخلية ثانوية ابن طاهر موئلاً للتمرّد يقوده الشباب الأمازيغ من القُرى الأمازيغية المنبثة في أرباض مدينتنا.. كان هؤلاء يكبروننا، وكانوا أغلبهم ممن أعيت بهم الإدارة بثانوية سجلماسة حينما لقيت من أمرهم عنَتاً فنقلتهم إلى ثانوية ابن طاهر.. كانت الثانوية بعيدة عن المدينة، ولم يكن بها كهرباء ولا ماء.. حمل هؤلاء تمرّدهم معهم ضدّ مدير الثانوية، وضدّ أستاذ للعربية يعتمّ بطربوش وطني، أسموه وصاحبه «طربوش الكاشّة». ثم كانت ظروف الداخلية وشظفها وأحداث عام 1973 وتبعاتها، كلها مادةَ التمرّد.. فكثير من قصور گلميمة شملتها آلة القمع، وكثير من الأُسر منها تعرّضت للتنكيل، وبعض بنيها يحملون ندوب الاضطهاد، وهم يتسترون عمّا ألمّ بهم خوفاً وفرَقاً.. تذكر الساكنة من قريتنا خُفية ما حلَّ بواحد من أشراف الخنگ، مولاي سليمان العلوي وكان مهندساً وقيادياً في حركة التمرد. لقي حتفه مع قائد التمرّد محمود بنونة في

مواجهة مع القوى النظامية بقرية أملّاگو. لحقت به أمه كمداً. ثم يذكرون ما حَلَّ بأسكونتي أو شرّي. كان شَرّي هذا معلّماً زميلاً لوالدي وانقطعت أخباره وتردّد أنه كان يزوّد إذاعة «مغرب الشعوب» بمعلومات عن طريق البريد، أما اللوزي فقد فرّ إلى الجزائر. وكان فتية الداخلية يُحدّثون عمّا يعيشه أهل المدن من بذخ وما يتقلّبون فيه من نعيم، ويدسّون ذلك إلى التلاميذ الصغار ليشحذوا وعيهم، ويختارون منهم الأمازيغ.. وإذا جَنَّ الليل، وفي غفلة من الحارس العام للداخلية أو معلم الداخلية، وغالباً ما يكون من الطلبة الداخليين، كسروا الزجاج، وأتلفوا الأسِرّة وأعطبوا حنفيات الماء المعطلة أصلاً... ومع ذلك كان مدير الثانوية محمد بندفعة رجل حوار، بل كانت له أفكار اشتراكية، وكان إلى هذا شاعراً له ديوان مطبوع **زهور بلا أشواك**.

كان محمد بن دفعة يُشيع كثيراً من الرهبة والاحترام في نفوس التلاميذ والأساتذة... لم يُلمس منه استعلاء قط على ساكنة فقيرة معزولة، ولا استنكف من حوار مع التلاميذ، هو الآتي من مكان بعيد، وعالم متناء عنا، من مدينة تُسمّى القنيطرة.. ولم نكن نعرف المدن إلا بأسمائها. كان الطلبة الأمازيغ موتورين ولم يكونوا يريدون الحوار.. لم يكونوا قد وجدوا بعدُ راية يُعلّقون عليها أنّاتهم وقميصاً يرفعونه ليجأروا بشكواهم ممّا سيقوم بهم من كانوا ذوي نفَس طويل من حركة ثقافية سوف يبلغ صداها أرجاء المغرب وجزءاً من الجزائر وشطراً من ليبيا وبلاد المهجر في أوروبا.. كان واحد من هؤلاء المتمرّدين خاليَ الأكبر. وكان متمرّداً بطبعه، وكان ذلك مصدر

إزعاج لوالدي الذي كان مسالماً يخشى المخزن. ولم يكن خالي ليراعي هواجس والدي وشجونه، بل كان يودُّ أن يجعلَ مني متمرّداً أُعزِّز صفوف الطلبة الأمازيغ. . أما خالي الأصغر الذي كان يَدْرس بثانوية مولاي إسماعيل بمكناس فقد اختار سبيلاً آخر من خلال رسائله التي كان يرسلها إليّ باللغة الفرنسية، ويحرص ألّا تكون سواها. كان يُحدّثني عن قائد روسي اسمه لينين شحذ وعي العاطلين والعمّال والطلبة وعبّأهم في صف متراصّ. كنت لدى خالَيّ كليهما مشروع فتى متمرد. وقد عوّلا على ما كنت أبديه من نباهة وما أقدّمه من نتائج جيدة. كان خالي الأكبر يريدني علمياً رياضياً، ولذلك كان يراجع معي دروس الرياضيات، ويوظف لذلك موهبتي، وكان خالي الأصغر يريدني أديباً. ولا أزال أذكر أنه هو من حفّظني قصيدة أبي العلاء المعري في واحد من مروج ميدلت، ألمو:

غير مجُدٍ في ملتي واعتقادي

نَوْح باكٍ ولا ترنُّم شادي

كان هذا هو الاستثناء الوحيد من اللغة العربية، لأن أبا العلاء المعري لا يرتبط بالأسطورة، ويدعو لإعمال العقل. وهل كنت قادراً على فهم ذلك كله آنذاك؟ كانا يريدان أن أثأر للأمازيغ، وكانا يريدان أن يفصلاني عن أثر العنصر العربي عليّ وعلى ثقافتي. كان لهما عليّ تأثير كبير. .

وهل يمكن أن يُفهم تمرّد الشباب الأمازيغ إن لم نأخذ في الحسبان ما تعرّض له ذووهم من أذى، وما لقوا من إعراض، وحاق بهم من تهميش، وحق بهم من نكال؟

ثم كانت تَرِدُنا أخبار عن معتقل غير بعيد، وراء الجبال الشاهقة

التي تحيط بالمدينة، أو قُلِ القرية.. وكان كثير من أبناء الجنود ممن يدرسون معنا يدسّون إلينا أخباراً عن معتقل تازْمامارْت وراء الجبل...

كانت علاقة منطقتنا مع المركز ملتبسة مضطربة. كان يُنظر إليها بؤرة تمرّد وساحة عقاب.. وهل كنت أدرك أن بعضاً من ذلك سينتقل إلي، وأن تَقِرّ تلك الرُّؤى في نفسية الصبي الذي كنته والفتى الذي سأصيره؟... لم أكن أخوض فيما كان يخوض فيه الخائضون من التلاميذ أو ما يتهامس حوله الكبار، ولكن تلك القضايا تسرّبت إلى وجداني..

وما الرجل؟ الطفل هو أب الرجل مثلما قال الشاعر الإنجليزي وردزورث. في مسرى حياتي وقد بلغتُ أشُدِّي لقيت كثيراً من الرؤى التي اعتورت طفولتي: الاشتراكية، القومية العربية، الحركة الأمازيغية.. وكان لي لقاء آخر لم أكن أُقدِّر أنْ سيحدث. لقاء بالإسلام... بعد فراق طويل.

وأتممت الحجّ. . كانت الكعبة المُشَرّفة لقاء، لقاء مع ذاتي. . كان طوافي بحثاً، ولما أن فرغت سعيت، وبعد السعي، انزويت جانباً أنظر إلى ما حولي وأتملّى حياتي. . . قد كان لحجّي ألّا يكون إلّا شعيرة. وفجأة، نعم، كماء يتفجّر من الأعماق تحوّل رَواء انبجس من داخل نفسي. . . كنت أشرب من ماء زمزم من كوب من ورق مُقَوَّى وأنا أنظر إلى جموع الساعين يمشون في رفق، ثم ما يلبثون أن يهرولوا. هل لكلّ ما أرى من معنى؟ وفجأة وقفت، وأنا أردِّد، بلى. . وهل الحياة إلّا تلبية لنداء الله. . له وحده لا شريك له. . في كل مكان، وفي كل زمان. . نعم، كنت أردّد النداء في لحظة معيّنة، وفي مكان معيّن، ولكنها تهيئة لفهم قصده في كل لحظة، وفي كل مكان. . ومشيت لخطوات وأنا أردّد بالفرنسية، ولا أدري لِم. . أنا مسلم. . . لربما لأنها اقترنت في ذهني بشعور وجودي، وأثر فلسفة سارتر عليّ. . . الإسلام ليس استسلاماً ولكنه فلسفة حياة، فلسفة فاعلة، مِقْدامة أساسها العزم، وهو المفهوم الذي يعزّ على الترجمة، واعتبرته النظرة الغربية في جانب منه، الذي هو التوكّل، تواكلاً واستسلاماً وانهزاماً. هو شعور مبدؤه النية، ثم التصور، فالإقدام،

مشفوع بالصبر والتواضع. . . كل مرة أقرأ في صلاتي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾، (سورة فصلت، الآية 30)، إلى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، (سورة فصلت، الآية 33)، إلّا تذكرت تلك اللحظة في الحرم المكّي. . وما الدين عند الله إلّا هذه الفلسفة التي تُقبل على الحياة، دون أن تشتط بها النفس. هذه الفلسفة التي تجليها آية أخرى:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾، (سورة القصص، الآية 77).

هو ذا الإسلام.

هو صرح فلسفي تجلِّيه الآية الكريمة، من نزْع الإنسان من عوالق الدنيا دون أن ينسى نصيبها منها، لأن بها وجوده، ثم سعيه للخير والبر والإحسان لا كمِنّة، بل كدَيْن. . وكيف يدرك الإنسان الدنيا بالهُزء منها؟ هو ذا فهم يعِزُّ على القوالب الغربية. فهي في مرجعيتها الإغريقية لا يمكن أن تجمع بين النقيضَين، وهي ترى العلاقة بينهما على أساس تضارب أو دياليكيتك، وهي في صيغتها الكاثوليكية إعراض عن الدنيا، وفي صورتها البروتستانتية، مثلما ذهب ماكس فيبر في الجذور الأخلاقية للرأسمالية، إقبال عليها. . أمّا الإسلام فيرى التكامُل بين ما قد يظهر متناقضاً في النظرة الغربية. هو لا يجعل من النُّجْح في الدنيا غاية، بل وسيلة لشيء أسمى يعطي للحياة معنى، هو الدار الآخرة.

ثم بحثت وسط الحجيج عن منفذ خارج الحرم الشريف. . . كنت كريشة، أشعر بخفّة، وأشعر بحيوية. . . ولم أكن قدّرت ما سيفضي له هذا الشعور من تحوّل في حياتي. . .

لقد قمت بشعائر الحجّ وأنا مُوزَّع بين شخصَين.. شخص يقوم بالشعائر، وشخص يرمقه في الوقت ذاته.. وكدت لمرات كثيرة أن أهوى كمن يعبر الصراط. كدت لمرات عديدة أن أقول كل هذا عبث.. أشياء كثيرة كانت تُنفِرني، ولكن أشياء كثيرة تفوقها تُفعم خاطري.. لقد رصدت ذلك كله، وإن تشأْ أقرأْه عليك.. كنت أرصد ذبذبات تَحَوُّل، إلى أن وقع ذلك الشعور العجيب وأنا بفناء المسجد الحرام وقد فرغت من طواف الإفاضة ومن السعي.. ووقع التحول في آخر لحظة...

لست أملك وسيلة للتعبير عمّا اعتمل في أعماق نفسي.. وليس لدي وسيلة للتدليل العقلي لِما وقع.. فلست أستطيع إلّا أن أتحدث عن تجليات ما وقع، أما ما وقع فهو نور يقذفه الله في قلب المؤمن، كما يقول الإمام الغزالي، أو هو طائر يحطُّ على عرش نفس الإنسان، كما في تعبير القطب سيدي عبد القادر الجيلاني:

«الإيمان طائر غيبي ينزل من أفق، يختصّ برحمته من يشاء، يسقط على شجرة قلب العبد، يترنم له بلذيذ لحونه..».

هو مسألة لا تُدرك إلّا بالذوق.. ولذلك أنا عاجز عن التعبير عنها...

لقد تحَوَّلْتُ، وتذكَّرتُ تلك المقولة التي كنت قرأتها في دير الراهبة حريصا في أرباض بيروت: لا ترحل عن هذا المكان إلى أن تتحول.. وهي الحكمة التي وجدت مقابلاً لها عند ابن عطاء الله السكندري: لا ترحل من كون فتكونَ كحمار الرحى يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى الُمكوّن: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، (سورة النجم، الآية 41).

وتحوّلتُ. . . أصبح لحياتي معنى. . أدركت المعاني الدقيقة لنداء «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وقد أحدّثك عمّا انتهى إليّ من معناها. أدركت معنى «الله أكبر».

كنت منقبضاً فأصبحت منشرحاً. كنت أخشى الحياة وصروفها، وأضحيت أهزأ منها ومن أحابيلها. كنت أهوى نفسي، وأأتمر بهواي، وأضحيت أضبط جماحها أو أسعى لضبط جماحها. وكان الهوى يُثبّط العزيمة ويَفتُّ من الإرادة. كانت غشاوة ترين على ذهني فلا أبصر، وانجلت الغشاوة. كنت مُقْمحاً، كالبعير المُكبّلة التي ترفع رأسها في شمم وإباء وترفض أن تكرع من الماء، وانحنيت بلا تأفُّف، لم يُثنِ وضعي، ولا ما نلت من معرفة وعلوم عقلية، لأنهل من نبع ثرّ صافٍ يكرع منه المؤمنون. . ذاك الرَواء (بفتح الراء) غيَّر حياتي رأساً على عقب. وأرى أنه غيَّرها نحو الأحسن. . أضحى البعيد قريباً، ومن حسبته قريباً صار بعيداً. إخوتي ليسوا من شاطرتهم مرابع الصبا أو خطرات الشباب. إخوتي ليس من يجمعني وإياهم عرق أو لسان. إخوتي إخوة إيمان، من يردّدون معي نفس النداء، نداء «الله أكبر».

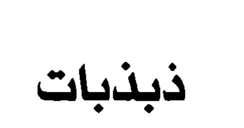
فهل تصبر معي أن آخذك في سراديب تلك التجربة يوماً بيوم كما قيّدتها. . ليست بذات قيمة حين عدت إليها. ألا يُخشى أن تحجب الجزئيات الكليات؟ لِم الوقوف على رحلة الشك والتردُّد وقد انتهيت إلى النبع القَراح؟ أليس يحسن أن تردد معي بيت ابن المعتز وقد تمثّله الإمام الغزالي:

فكان ما كان مما لستُ أذكره

فَظُنّ خيراً ولا تسألْ عن الخبرِ

ومع ذلك أريدك أن تقف معي على تلك الجزئيات التي تطفح بالحياة. وظُنَّ خيراً في جميع الأحوال.

أنقلها كما كتبتها في إبّانها بلا تحوير، إلا من تنقيحات طفيفة.


ذبذبات

بسم الله

جدة - الأربعاء 12 ديسمبر 2007

غادرت البيضاء أمس مساء قادماً من مكناس. بوادر زكام ألمّت بي وهدّني الدواء الذي أتناوله. أؤدّي مناسك الحجّ لأرسم حدّاً لمرحلة. لأعبّر عن انتماء، ودافعي شعور روحي مُستقى من تربيتي، ومستقى من لغز الحياة والكون. فتحت كتاب عبد الله حمودي **موسم الحج** وأنا في الطريق بين مكناس والبيضاء، وكنت قد قرأته فور صدوره قبل سنتين - قرأت نتفاً منه في الطريق. أحالتني قراءتي تلك المبتسرة إلى كنه الكتاب ودافع صاحبه. كتاب مثير ولو أنه لا يخلو من إشراقات.. الحجّ تلبية وخنوع لله وليس تجمعاً عسكرياً.. الإحرام تجرُّد وينبغي أن يكون كذلك.. تجرُّد من الملبس وتجرُّد من حطام الدنيا وشؤونها وهمومها.. تلك فلسفة ذلك النداء: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك». التلبية لله وحده، صاحب المُلك.. يقوم الإسلام على شعارين، الأول «الله أكبر» وبه تبدأ كل صلاة، وهو معاينة وإقرار.. كل ما في الكون، وكل ما في الحياة، مهما كبُر، فالله أكبر منه.. أمّا النداء الثاني أو الشعار الثاني فهو

«لبيك اللهم لبيك» يتلوه الحاج أو المعتمر، وهو يتجاوز الإقرار إلى الاستجابة، إلى تلبية النداء. وهي عودة النفس إلى ذاتها. إلى حقيقتها. فإلى الله مرجعنا، وإنَّا إليه راجعون، و﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، (سورة النجم، الآية 42). ممّا يفيد أن الإنسان قد يَأْبَقُ، وقد يضل، وقد يُعييه البحث، وينتهي به المسار إلى مصالحة مع ذاته، بالوقوف على ضعفه، وبالوقوف على حاجته الماسة إلى معنى للحياة. ولَكَم أكلف بالآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، (سورة الانشقاق، الآية 6). هكذا أرى تجربتي. هي عودة، وإلّا لما أقدمتُ على أداء مناسك الحجّ. ولقد سبق لي أن ردَدْتُ عروضاً سابقة للحجّ لأني لم أكن مؤمناً به آنذاك، وكنت أعتبر القيام به التزاماً لا يسوغ الاستهانة به.. أنا هنا لأرصد تموّجات ذاتي لا لأنقل ملاحظات عن الحجيج، أو أرصد ما يعتمل أمام ناظري كما قد يفعل العالم الأنتروبولوجي.

كلٌّ لِما هاجر إليه كما يقول الحديث الشريف، وكلٌّ لما حجّ إليه..

بالمطار التقيت وجوهاً أعرفها من شخصيات كمحمد أوجار، وزير حقوق الإنسان سابقاً، ومولاي الطيب الشرقاوي، الوكيل العام للمجلس الأعلى للقضاء.. سلّمت عليه تأدُّباً، وتحاشيت مدَّ حبل الحديث..

ظروف الاستقبال جيدة وظروف الإقامة جيدة.

وصلنا حوالي الساعة الخامسة صباحاً، وانتظرنا أقل من ساعة من أجل ختم الجوازات.. كنت أبحث عن مكان للصلاة فأرشدني

إليه شخص سعودي -تبيّنت ذلك من لهجته- وقدّمني لأؤم الصلاة فاعتذرت.. ولعلّ أن يكون قد أثّر فيه ذلك، إذ بادرني وقد فرغنا من الصلاة بابتسامة.. وهو على ما يبدو موظّف صغير، وهو يعلم أن لنا وضعاً اعتبارياً، وهو لذلك يُقدّر أنّي قدّمته ليؤم الصلاة..

جزائريون ثلاثة في وضعنا نفسه.. لهجتهم قريبة من لهجتنا. سحناتهم. قاطعتْ شاشة العربية اهتمامات كل منا وشؤونه حينما بثّت صور انفجار ضرب العاصمة الجزائرية (انفجاران على الأصحّ) أوديا بحياة 60 شخصاً، وقد تبنّى العملية تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي. ردّ الجزائري الذي كان واقفاً بجانبي ونحن نشاهد صور التلفزيون في قاعة الانتظار، وقد قالت المذيعة إن كمية المتفجرات 800 كيلو غرام، بالفرنسية: 800 كيلو غرام. بالفرنسية.

أمور الدنيا والحياة تتعقبنا ولو أننا نريد أن نتحلّل منها.. أقفلت تلفوني المحمول.. أريد من هذه التجربة قطيعة.

الخميس 13 ديسمبر 2007

لا أزال في جدة. الزكام أثقل عليّ والأدوية التي أتناولها أنهكتني.. تجوّلنا في المدينة بعد صلاة المغرب صحبة مغربي يقيم هنا ويشتغل محافظاً لقصر الملك بجدة. ظروف الإقامة الباذخة، والنزوع إلى الاستهلاك والتسوق ومظاهر العولمة، كل هذا لا يلتئم مع ما أخذت عليه نفسي من تحلُّل من الماديات وتأهُّب للروحانيات. قلّما ينفصل عند كثير من الحجّاج تأديتهم للمناسك، والانغمار في حمّى التسوق.

وقفتُ على تجربة حمودي مرة أخرى. هناك جانب ذاتي في عودته إلى البيت:

«تعلقي بمظاهر الحياة التي انتسجت في الإسلام هو ما منحني بيتي الأسطوري الوحيد. لم يكن لي من بيت سواه، حتى ولو أن بيوتاً أخرى كانت مألوفة لدي، مثل الإغريقي الروماني، أو اليهودي، أو المسيحي، أو البوذي، أو الأفريقي، أو الأميركي الأصلي»[1].

هو انتماء حضاري..

وهو يقف على هذه الحضارة التي منذ سقوط غرناطة دُفعت إلى ردود فعل، بل تحنّطت:

«منذ أمد طويل ومنذ سقوط غرناطة، تشبّث الناس بشكل من الحياة، في تلك الأرجاء، ينتهي على ضفاف البحر. كان التعبير المستعمل للتدليل على المرافئ هو الثغور، ومنذ أكثر من قرنين، كان الناس يعيشون في وضع دفاعي. وكان هذا الوضع يفضي إلى مآزق: مُحَافَظَة شَرسة منغلقة على سلطات وامتيازات، أحالت بأشكالها الفظة والتعبدية، الوحي إلى «كلام الله»، والقرآن إلى علبة للاستشهاد، أو علبة أدوات. أما فتاوى قديمة، حول النساء وغير المسلمين والردّة أو الخمر، فقد أضحى لها وضع «قوانين إلهية». لم يكن سجناً، وكان ينطوي على فضاء رحب يطفح بالسعادة. حافظت فنونه على قوتها، وبقيت شعوبه ميالة إلى التضامن، وسَعْيُ المتصوفة منه متميزاً. نعم، لقد أبان تمثّل الخلافة السياسية للرسول، منذ

(1) Abdellah Hammoudi, *Une saison à La Mecque*, p. 172.

البداية، عن إخفاقات، ولكن استحضار التجربة الأولى بقي ماثلاً، يغذّي، ولا يزال، الأشكال العتيقة التي تتحدّى الطغيان. كانت سكينةُ الإسلام تنطبع في الحياة العادية، وتَفُلُّ أشكال الاستبداد الاستعمارية وإعادة صياغاتها المعاصرة»[1].

هذا الوعي الحضاري هو حافزه لأن يقوم بأهم ركن يُدلّ به المسلم على انتمائه، ألّا وهو الحجّ..

لولا الحرب على العراق (عام 2003) هل كنت أَقْدِم على مناسك الحجّ؟ الهجمة التي تعرّضت لها «دار الإسلام» أجّجت وعيي بالانتماء... ومهامهُ الحياة وسراديبها قادتني إلى حيث أنا. ولأيٍّ أن يرى فيه تخاذلاً أو انكساراً. الغرب سراب، والمتغربون أعجاز نخل خاوية يحبّون الدنيا ومفاتنها ولا يقوون على شيء..

المدينة المنورة - الجمعة 14 ديسمبر 2007

وصلنا المدينة جوّاً، أمس بعد صلاة العشاء، ولم يتسنَّ لنا أن نصلّيها بالمسجد. نقيم بفندق الإيمان، وهو محاذٍ للمسجد. بعد أن وضعنا حوائجنا قصدنا المسجد وابتهلنا الفرصة لزيارة قبر النبي عليه السلام. أرى المسجد بمنظار آخر غير النظرة التي رأيتها فيه في زيارتَين رسميتَين.. الذي راقني فيه سعته للمصلّين وللمؤمنين وغير المصلّين. الذي راقني هو وظيفته الاجتماعية التي تتيح للناس أن

---

(1) *Une saison à La Mecque*, op. cit., pp. 176-177 et s.

يجلسوا بأفنائه وأن يتحادثوا ويمرحواويناموا وأن يلقوا الدروس في حلقاته. هي هذه الوظيفة التي نفتقدها في المغرب إذ أضحت المساجد أماكن للتعبُّد ليس إلّا..

زرتُ قبر النبي عليه السلام ووقفت بالمكان ما بين المنبر والقبر، والمعروف استناداً للحديث النبوي بأنه روضة من رياض الجنة. كان يعرف ازدحاماً كبيراً، ولم يتأتَّ لي أن أصلّي ركعتين إلا بمحاذاته وليس ما بين المنبر والقبر..

الزوار يملؤهم الخشوع والحرّاس ينهرونهم بلا إرعاء، ولا تحمل نبرتهم أي تقدير ولا توقير. يصيحون على آثارهم: «يالله يا حاجي»..

في المطعم بالفندق راعني إقبال الزوار والحجّاج على الطعام بنَهَم. كنت أتوقع شيئاً من الترفّع والزهد. أتساءل هل الحج عبادة أم وظيفة اجتماعية؟

استيقظنا قبل الفجر واتخذنا مجالسنا على الساعة الرابعة ونصف، وما هي إلّا دقائق حتى امتلأ المسجد، وقد قرأ الإمام سورة المُلك في الركعتَين.. العجيب هو هذه الجموع من كل البلدان والأجناس والثقافات. وفي ذلك قوة الإسلام.

يختلط الليل بالنهار. بعد صلاة الصبح تناولنا الفطور ثم نمنا. وما إن استيقظنا حوالي العاشرة ونصف صباحاً حتى هرعنا إلى المسجد لنحجز أماكننا قبل أن تمتلئ.. وكانت مناسبة لأقرأ القرآن. أغلب الذين كانوا قربي كانوا يرتلون القرآن ولا يتوقفون عند معانيه.. تلاوة القرآن لديهم عبادة.

خطبة الإمام تمحورت حول عمل الخير بأنواعه الثلاث التي يقوم بها المرء، وهي أداء الفرائض، وتلك التي يقوم بها إحساناً وتزكية، وأخيراً تلك التي ينأى بها عن فعل الشر وإيذاء الآخر. . وجدت الخطبة مفيدة وتنزع إلى المقصود من الدين ومن الإسلام. ودعا الخطيب للحجّاج بالتوفيق وتيسير المناسك، وابتهل إلى الله طلباً للغيث.

روح الحجّ ليست هي المكان ولكن هي اللُّقيا، وهي الجماعة وهي الآصرة (La communion).

السبت 15 ديسمبر 2007

صليت العصر أمس بالغرفة. صدري مختنق وأزمة الربو أثقلت عليّ. بعد العصر تجوّلت رفقة السي فوزي، وهو عامل (محافظ) أنفا الدار البيضاء، راجلَيْن في أحياء المدينة القديمة. أحياء متّسخة وبنايات متآكلة وفوضى عارمة، لا يفصل هذه الأحياء عن عمارات الفنادق الفارهة سوى شارع. وحيثما تحلُّ تجدُ باعة متجولين، وحيثما تمرُّ يدعوك بائع: «ياحاجي تفضل». التجارة مواكِبة للعبادة أو العبادة مواكِبة للتجارة، لست أدري. .

صلّيت المغرب بالمسجد وبقيت هناك حتى العشاء بين قراءة القرآن والتأمل، وللحظة استلقيت على ظهري كما يفعل كثيرون في أفناء المسجد. . شعرت براحة وسكينة. .

بعض العلماء كانوا يُقدِّمون دروساً في مناسك الحجّ. . كانوا يسردون معلومات وأشياء معلومة ولا يتعدّون ذلك إلى الغاية من الحجّ، ويجيبون عن أسئلة مكتوبة، كل ذلك باللغة العربية ممّا يقصي

غالبية الحجّاج من غير العرب.. وأغلب الحجّاج العرب مصريون.

بعد صلاة العشاء خرجنا مع مغربي يقيم بالمدينة ويشتغل في الفندقة. أخَذَنا إلى مكان موقعة أُحد.. مكان مهمل وربوة هي المكان الذي كان به الرماة.. أمَا كان خليقاً الاعتناء بهذا المكان عوض أن يكون شبيهاً بأسواقنا الأسبوعية؟ وقفتُ على جدال بين زائر شيعي من العراق -على ما يبدو- وقد أخذ يناجي سيد الشهداء حمزة ويتوسّل إليه، وبين مُطوّع سعودي نهره نهراً عنيفاً قائلاً له إن التوسُّل إلى حمزة لن ينفعه أو يضرّه في شيء وأن التوسل إلى الله وحده، ولم يجد الزائر الشيعي بُدّاً من أن يخلص نجياً.. أردت أن أتدخّل لأقول للسعودي: دعِ الشخص وشأنه، فهو إذ يحدّث المكان يستحضر شخصية حمزة، ثم ما لبثت أن أحجمت.

أخذنا مُرافقنا المغربي إلى الجانب العصري من المدينة: تجليات العولمة، ساحات كبرى للتسوق، ماركات عالمية، مقاهي، مطاعم.. كأنما فُصِلَتْ عن مكان العبادة. جانب آخر من المدينة. جُلنا في أرجاء المدينة بالسيارة، وأراني المرافق جبلاً به يوجد قصر الملك، وشرح لنا أن الدّجال سيخرج من هناك، ولكنه لن يدخل المدينة -على خلاف مكّة- وأنه حسب حديث، سيخرج إليه أربعون ألف منافقاً -أو سبعون- لا أذكر، وأنه سيضرب بسيفه شخصاً فيفصله شقّين، فيردُّه إلى حالته الأولى، فيقول له: أوَ لم تؤمن بي أني أنا الله؟ فيردّ الشخص الذي فُصل شقين ثم رُد إلى حاله الأول: بل أنت الدجال. وإثر ذلك يفْصِل الدّجال إلى الشام.. استمعت إلى قول محدّثي دون أن أعقّب.

سألته إثرها عن مقبرة البقيع، وقال لي إن موتاها أولُّ من يُبعث

يوم الحشر. . مرافقي هذا رجل عصري ويشتغل مديراً لفندق ويتكلّم الفرنسية والإنجليزية.

في عدة برامج تلفزيونية سمعت أن الحجّ إلى الكعبة كان موجوداً قبل النبي إبراهيم، منذ آدم. ويضرب العلماء المُدْعون للبرامج حسابات دقيقة بآلاف السنين، ويضربون عدد السنين بأيام الله، وهي مئة ألف سنة ممّا نعدّ.

ما هذه الوثوقية؟

كان الملك (ملك السعودية) قبل يومين أمام مجلس البيعة يتلو خطاباً وبه الآية ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ. . .﴾ إلى آخر الآية. ولم يرَ المخرج بُدّاً من أن يقفز على اللقطة ويكتفي ببدايتها.

هذا الصباح بعد أن صليت الفجر خرجت مع الأهل لزيارة المزارات. . مكان الشهداء، ومسجد الخندق، أو المكان الذي وقعت به غزوة الخندق، ثم مسجد قُبَاء. . وقيل إن الصلاة فيه تَعْدِل عمرة، وقرأت أن النبي كان يأتي إلى مسجد قُباء راجلاً أو راكباً كل يوم سبت ويصلّي به ركعتَين. . كذا، مكتوب على حائط المسجد. .

كانت المدينة ستكسب لو حوفظ على معالمها، لو أُبقي على واحتها، لو تمَّ تعهّد مزاراتها، عوض الإسمنت الزاحف وخردة الصين التي تملأ الأزقّة والشوارع والحوانيت.

جدة - الاثنين 17 ديسمبر 2007

غادرنا المدينة أمس بعد صلاة الفجر. حرصت أن آتي مكة برّاً عوض الطائرة التي كانت مبرمجة سلفاً، عبر جدة. لم يأتِ السائق في الوقت المحدّد وهو السابعة، ولم يحضر إلّا الساعة الثامنة

ونصف. كانت تجربة الرحلة عبر الصحراء مفيدة وممتعة. صحراء قاحلة، تتخللها جبال بركانية سوداء. صحراء جميلة. وهي جميلة بالنسبة إلى من ينظر إليها وهو في سيارة أو يتنزّه، أما بالنسبة إلى من كان يعبرها في سالف القرون فهي مخيفة، وهي كما ورد في الحديث النبوي حول دعاء السفر تتسم بكآبة المنظر.. لم تستغرق الرحلة إلّا أربع ساعات..

كان الزحام متوقّعاً في مكّة. جنبات المسجد الحرام ممتلئة عن آخرها، الشوارع المحيطة به، السطوح، الأقبية.. صادف وصولنا صلاة الظهر وصلّيناها على السطح، أما النساء فقد تخلّفن ليجدّدن وضوءهنّ. بعد الصلاة حاولنا أن نلتمس بجهد جهيد سبيلاً إلى حرم الكعبة وسط الجموع التي في الغالب تلزم أماكنها. وقمنا بالطواف وسط جموع متباينة: عرب، أفارقة، أتراك، إيرانيون، أندونيسيون، أوزبك، هنود... أما ثالثنا، صهري عبد القادر، فلم يصمد وراغَ إلى طرْف قصي. وكانت الأدعية تختلط، وكان الغالبية يردّدونها بالعربية ويقرؤونها بحروف لاتينية، وكان من الأفارقة من يحفظ أدعية بالعربية يردّدها وراء جموع تلثغ وتلحّن ولا تفقه معناها.. والاستثناء الوحيد أتراك ردّدوا دعوات بالإنجليزية لفائدة «إخواننا في فلسطين، والعراق وأفغانستان والشيشان، وأن ينصرهم الله.. كذا».

وبعد الطواف صلّينا ركعتَين، وقد التمسنا من شخص أن يفسح لنا لنصلّي، فقال: للصلاة فقط (For praying only) ويبدو أنه من نيجيريا. بعد أن فرغنا من الصلاة، وجدت غير بعيد مني شخصاً ملقى على الأرض وقد حمله صاحبه وهو يهمس في أذنه بالشهادة، ووجه الشخص الملقى يعتصر ألماً.. ذهبت أبحث عن الماء، وكان

من المستحيل أن آتي به من حنفيات ماء زمزم للزحام الشديد، فتحوّلت إلى الجالسين بالمسجد ممن يصحبون معهم قنينات الماء ألتمس منهم الماء وأصرخ بالعربية والإنجليزية: «مية، Water»، ويبدو أن ما اعترى الشاب الملقى أزمة صرع (Une crise d'épilepsie)، وما لبثت فرقة الإسعاف أن حلّت وحملته لكي لا أعرف مصيره بعدئذ.

ثم رغنا للسعي.. الزحام هو هو، ولكن السيولة أحسن.. أثارني استعمال الهاتف المحمول أثناء الطواف وأثناء السعي من لدن بعض الساعين والطائفين.. بل شاهدت شخصاً بين الصفا والمروة وهو يسعى، يأكل ساندويتشه على الطريقة الأميركية.

بعد السعي حلَّقت رأسي. الحلاقون أغلبهم هنود أو باكستانيون. «بيزنس». أصحابه يُذكّرون بتجّار نيودلهي وصيارفة شرق آسيا. يحملون لفائف من الأوراق النقدية يعبثون بها أو يرتبونها. المشهد كما لو أنك في نيودلهي أو كراتشي أو إسلام أباد. والشارع المحيط بالمسجد مليء عن آخره من حجّاج آسيويين وأفارقة ومن ذوي الحاجة الذين يتّخذون ذلك الفضاء مبيتاً لهم وينامون على الملاءات أو الكارتونات. لا شيء يُثنيهم، لا أشعة الشمس ولا الضوضاء. يبدو الوجه الآخر لمكّة على المرتفعات، وحضن الجبال والبنايات التي تحيط بالحرم: بنايات متواضعة جداً تشبه بنايات مدننا الصغيرة أو أحيائنا الشعبية.. هناك مكان للْعِلية من القوم، أصحاب «السياحة الروحية»، ثم هناك أماكن لـ«الرعاع» من مختلف الشعوب الذين يأتون لـ«يكفِّروا عن خطاياهم وذنوبهم» وليعودوا «كما ولدتهم أمهاتهم».. لا وسط ولا توسط. فوضى عارمة، وقداسة مثلومة.

بالتجارة التي تحيط كحلقة أو عقد بمحيط الحرم.

صاحبي، فوزي، وهو مؤمن لا يُخدَش في إيمانه، لم يتورّع من انتقاد ما شاهدنا من فوضى وانعدام قدسية -بل لنقل وثنية-، زوجتي تُرجع ما شاهدنا إلى العدد، ولا يمكن تغيير الأمور، وتشفع بالقول: «وهذا هو الحجّ».

التقينا بالنساء بالمروة.. وصلّينا جميعاً العصر، وارتوينا من ماء زمزم، وشققنا طريقنا بعسر خارج المدار لنلتحق بالسائق.

مِنى - الاثنين 8 ذي الحجة 1429
مساءً (الساعة السادسة)

ظلّت فكرتي أغلبها سلبية فيما عشته أمس: الفوضى، الزحام، الفتيشية، صور من المُكاء والتَّصدية.. وأغلب فقهاء الإسلام يُحذّرون من استعمال العقل في الحجّ، ويوصون بقبول الأمور كما هي لأنها عبادة.. لكنّ شيئاً عاد ممّا عشته أمس وطفا من لُجّة الأحداث، هو عصارتها. ذلك الحدث الذي كتبت عنه هذا الصباح بشأن الفتى الذي كان يتحشرج ألماً، ولعله كان يحتضر.. نعم كان مرافقه يوصيه بالشهادة، وكنت أنا أصرخ: «مَيّة..»، وكانت هناك امرأة مسنة هي من أعطاني حقينتها من الماء (Bidon)، لم تعرف لِم أول الأمر، وما أن تبيّنت الأمر حتى سالت دموعها رِقّة ورحمة، ثم تناثرت نشيجاً.. صورة متسارعة مرّت بسرعة، لأن الزحام صدّني أن أبقى ولأن الإسعاف حمل الفتى..

هو هذا الحجّ كذلك، هذه الرقّة التي فاضت من تلك المرأة رحمة وشفقة لإنسان، لأخ لها في الإسلام. والإسلام لا ينبغي أن

يُرى كمجوعة طقوس وعبادات، ولكن كفلسفة، إسلام أمور الذات إلى مسار يتجاوزنا. .

والحجّ كذلك هو رفيقة، زوجة فوزي التي تحرص على خدمة فوجنا، تطعمنا، وتمدّنا بالدواء، وهي التي قرأت في إعلان ونحن على متن الطريق ما بين جدة ومكّة: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، معلنة: هو ذا الإسلام، وهو أمر يوجد في كل الأديان.

تجربة هذا المساء متضاربة، تتداخل فيها تأثيرات قريش وفلسفة الإسلام، قريش أعني بها تصرفات بعض القيّمين من السعوديين، عدم انضباطهم وعجرفتهم. .

طُلب منا أن نحضر بهو الفندق على الساعة الحادية عشرة، ولم نغادر إلّا الساعة الواحدة ونصف. . وأمام الفندق بادرنا موظف بعجرفة، وأجبته بشدّة، وبمِنى صدّني حارس من الأمن عن دخول الحمى (Compound) الذي نحن فيه، ورددت: «نحن ضيوف الرحمن، أو من المفترض أننا ضيوف الرحمن» فأخلى سبيلي، أو سيدة متسولة زعمت أنها افترقت عن جماعتها وتريد مساعدة مادية، وتعرّفت إليها زوجتي، في حجّة سابقة لها، بأنها كانت «تشحد» كما يقول المصريون. .

كل هذا يهون أمام تجربة رائعة هنا بمِنى. . .

أقوام من كل مكان، ومن كل الأجناس، يرْتَدُون لباساً واحداً، ويسكنون حضن الجبل، وهذا الذي يُضفي قوة وجمالاً على المشهد، ارتباطه بالطبيعة، وبالتجربة الأولى. . ثم هذه التجربة

البسيطة للمسلمين وهم يعيشون سواء، وقد تجرّدوا من حطام الدنيا ولباسها. تجربة جماعية هي غاية الحجّ، هذا التوادد الذي كنت أنشده (La communion).

الإسلام رهين بما يمكن أن نصوغ منه (Il sera ce que nous en ferons). ينبغي أن نستخلص من العبادات روحها، وهذا الدين أساس حضارة عظيمة ولحام أمة مكلومة.

الثلاثاء 9 ذي الحجة

(بعد الفجر بمِنى)

أنا بالسيارة متأهّب للذهاب لعرفات.

أصابني الأرق ولم أنم إلا سويعات.

هذه هي السبيل ولا سبيل سواها كما قال سقراط لتلميذه كريتون وقد أتى ليُخلِّصه، فأبى عليه ذلك، وقال قولته: «فلنتبع هذه الطريق التي رسمها الله».

(عرفات)

الساعة الثامنة وربع، وهي ساعة وصولنا. غادرنا مِنى على الساعة السابعة. جم غفير يَفْصِل في اتجاه عرفات رجالاً وركباناً. جبال شامخة ومهيبة وشروق الشمس مؤثّر وأخّاذ. جمالية المكان من قدسيته، وقدسيته من جماله..

تجارب لأُمم أخرى تُلحّ عليّ، ولَكِنَّ ما أرى هو تجربَة الإسلام. أكبر تجمع بشري.

قلت لزوجتي: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، الآية 63).

توالت أمام ناظري ونحن مقبلون على عرفات أسماء شركات ذات مرجعية دينية: شركة مناسك، شركة الذاكرين، شركة الفرقان، شركة الرشاد..

جموع الحجيج جذلان لا يُقرأ على مُحياهم الضجر أو التبرّم ولو أن ما ناموا إلّا سويعات، ولو أنهم ما افترشوا إلّا الأرض.

تذكّرت ما قرأته عن حجّ محمد أسد في **الطريق إلى مكة** في النسخة العربية. هل أنا واجده؟

(عرفات ظهراً)

حرارة مفرطة. هجعتُ لبعض الوقت ضحى، واستيقظت حوالي الحادية عشرة. توضّأت. حاولت أن أخرج خارج المعسكر. جموع غفيرة وخطر الضياع. قفلتُ عائداً وقرأت القرآن في تدبّر وأناة.

فرَغْنا من صلاة الظهر. تابعْنا خطبة إمام مسجد نميرة، الصوت مضطرب والإمام يُسرع في الكلام.. تمحورت خطبة الخطيب حول النبي عليه السلام وما هدى به أمته ونصحها وهداها للخير، ثم وقف على قيم الإسلام. وتمحورت خطبته في شقّها الثالث حول واقع المسلمين الذين هان أمرهم وتكالب عليهم الأعداء، ثم نهى عن التشدُّد والغلو وحذّر من الإرهاب، ودعا المسلمين إلى التقوى والعلم والإيمان، وأهاب بالنساء إلى التزام أحكام الإسلام الخلقية من عفة وحجاب وحذّرهنّ من المفسدين الذين يريدون بهنّ سوءاً..

ثم دعا لرجال الأمن ولملك البلاد عبد الله بن عبد العزيز وولي عهده.

الجانب الخلقي ممتزج والاعتبارات السياسية.

الخطبة كانت بالعربية وحدها فكيف يفهمها المسلمون من غير العرب، أو ما لا يحسنون العربية؟

(العصر: الرابعة وخمس دقائق)

بعد الغداء خرجت خارج المخيم وسط الحجيج.. شعور عميق ملأني وأنا أرى علامات التوادد بين المسلمين ودلائل الإحسان بينهم، يوزّعون الماء والفواكه والأكل مجاناً ومن مختلف الأجناس.

وهي صورة تزري بكل الصور وبكل التصرفات.

قوة كامنة في ثنايا هذا الإحسان وهذا البر..

ويستحق الجبل تسميته: جبل الرحمة..

وملكني الخشوع ودمعت عيناي..

مِنى - الأربعاء 10 ذي الحجة

اليوم يوم العيد، وقد فرغنا من المناسك أغلبها، وتحلّلنا التحلّل الأصغر، ولم يبقَ سوى طواف الإفاضة.

الأمور لم تكن هيّنة. قبيل المغرب ركبنا السيارات وقبعنا فيها حتى بعد الغروب.. كنت أودّ أن أتملّى مغيب الشمس، ولكن الحافلات المتراصة كانت تحجب كل رؤية.. بقينا في السيارة لساعات، وبَلَغَنا فيما بعد أن الموكب توقف في انتظار أن يمرَّ أمير ما.

بعد العصر كنت بالمسجد أقرأ القرآن. قرأت سورة البقرة، وسورة آل عمران.. كنت مستغرقاً في قراءتي، وكان بمحاذاتي شاب لم يتجاوز الأربعين من عمره، من الخليج حسبما يبدو من سحنته ولهجته. لم يكن يكفّ عن الكلام في الهاتف الجوال.. ولم يتوقف إلّا بعد لأي، ثم كان يعبث بأظافر أصابع رجليه، وحدث أن انتزع ظفراً فبادرني: «ما حكم ما وقع؟»، أجبت أن لا تثريب عليه، لأن الأعمال بالنيات ولم يبتغ مما فعل الزينة.. واستدار بغير اهتمام.. ما الذي أشاحه عني؟ لهجتي؟ بلوغه مقصده؟ أو «فتواي» المتحررة.. أمّا استغرابي أنا فهو أن أُصبح مرجعاً للفُتيا..

وغادرنا مع المغرب وسط زحام شديد، وسياقة خطرة، تَحُفُّنا عن يمين وشمال جموع غفيرة من الحجّاج في اتجاه مزدلفة، ممن اختار المشي، وهم يسرعون، أو ضاقت به ذات اليد. كل المشاة كانوا في فرح وحبور ونشاط، إلّا المسنين الذين أعيى بهم السير..

ونبلغ مزدلفة، ونفترش الثرى.. يلدغني البعوض. نُصلّي العشاءين وأؤم الصلاة تحت إلحاح جماعتنا رغم سعيي من أن أُعفى منها... كيف أؤم الصلاة ونوازع عقلية تملك عليّ وجداني، وأقرأ الحجّ قراءة متجرّدة، وأتفاعل حينما أتفاعل لا مع الطقوس وإنما مع الإنسان.. أجدر من يؤم الصلاة مِن جمْعنا من ملّك إيمانه وعقل عقله..

تروي كُتُب السيرة أن النبي وقد ركب راحلته القصواء وقد قفل من عرفة إلى مزدلفة كان يردِّد: السكينة، السكينة..

لم أشعر بالسكينة، بل بالقلق، بل بالانقباض..

ما هذه البنايات التي تحجب جمال المكان وبهاءه؟

ما هذه الطقوس التي تحجب روح الحجّ والغاية منه؟ لا يلتقي المسلمون إلّا أجساداً، ويرى بعضهم البعض كأنه فيلم صامت.. هل يحقّق الحجّ غايته؟ غايته في التعامُل والتعارُف.. أم هو طقس بلا معنى، أقرب إلى الوثنية؟..

وأنام على الأرض. تأخذني سِنَة من نوم. يوقظني الأصحاب لأتناول بعضاً من الطعام، أرزاً ودجاجاً في صحن.. أتمشّى أنا وأوجار في المعسكر.. جموع غفيرة. منها من تسلَّق حضن الجبال. لا أدري أين يكون اليازغي، يسأل أوجار. أردُّ في مكان ما.. وأخذ يتحدّث في السياسة. كنت أستمع لا غير.

(...)

رددت: هيّا نعود. نَغْلي أدماني وأمشي بعُسر. بلغنا الجمع وأهبْنا بهم جمع حوائجهم، ثم قَصَدنا السيارة. لم نتأخّر عن المغادرة، أو لم يتأخر الموكب عن المغادرة في اتجاه مِنَى مروراً بمكّة. السياقة ضرب من الجنون.. ازدحام وسرعة واكتظاظ، وبين حين وحين لحظات مضحكة، كما حينما تسلَّل أفريقي بدراجته النارية في حاجز أمام مرأى الحرّاس كما لو هو يراوغ في لعبة كرة القدم La vie reprend ses droits.

كنت أتهيّب لحظة الجمرات.. تخلّص منا السُّواق ولسان حالهم يقول: «عوموا في بحركم».. توزّع جمعنا بين قائل بإرجاء مناسك الجمرات، ورأي يدعو بتأجيلها قبل تزاحم الجموع التي ستَقْدِم بعد الفجر قادمة من مزدلفة.. ومال الجميع إلى رأيي وقصدنا الجمرات.. ما قدّرنا، قدّره آخرون، فتكوَّفت الجموع الغفيرة. لم

أكن جمعت الحصاة بمزدلفة، وأعطتني زوجتي سبع حصاة. مشينا في سراديب طويلة تخفيفاً لضغط الحجّاج.. لا خطر، لا خطر من الازدحام، إلى أن بلغنا مكان الجمرات الكُبرى.. ليس هو الصحن الكبير الذي سكن مخيلتنا، ولكنه عَمود لقنطرة ضخمة نُقشت لتتحمل آثار الرشق. وبدأ الرجم أو كان بدأ، وكانت تُسمع طقطقات كطقطقات الرمي بـ Les balles à blanc. كنت أقرأ في وجوه الكثيرين الحبور وازدهاء من سدّد غرضاً وأصابه. متعة لاعب رياضي أو عسكري سدَّد هدفه. عملية تدريبية تحسباً لأيام المعركة، ولذلك تعاد الكَرّة، ثلاث مرات: الجمرات الوسطى والجمرات الصغرى.. هي عملية تسديد، وعملية تدريبية، لا علاقة لها برجم الشيطان، وتحوَّل معناها مثلما يتحول معنى الكلمات، وتتغيّر معاني الطقوس ويُذهل عن الغاية منها..

أذكر صورة لرجل يمشي بجهد جهيد، ورجله اليسرى منتفخة انتفاخاً شديداً. لا رجله ولا ألمها، يصدانه عن السعي لرمي الجمرات. امرأة مُسنّة خارَت قبل أن تبلغ الهدف وهي تعلنُ عجزها عن إتمام المسير.

وعدنا وقد تِهْنا وسط جداول من الحافلات ودخانها النَّفَّاث. حملت مَحرمي حول أنفي وأغذذت السير ورجلاي تدميان ونعلي يشجّ جرحي. معالم الطريق ضاعت وتهنا. بلا معالم نحن، بلا علامات بسبب التعب.. بسبب الإعياء..

وبلغنا أماكننا منتصف الليل وقد قاربت الساعة الرابعة صباحاً. قصصت شعيرات من رأسي، وكنت قد سبق لي وأن حلقته بعد السعي، ثم اغتسلت وتحلّلت التحلّل الأصغر، ونمت ملء

جَفنَي. . كنت تعباً، كنت منهكاً، ولم أستيقظ إلّا ضُحى وقد جاوزت الساعة الحادية عشرة صباحاً.

(مساءً)

يبدو لي الحجّ كما لو هو محرّك يؤزُّ أزّاً قوياً ولكن في فراغ، بلا حركة، يحدث ضجيجاً ويثير نقعاً، وينفث دخاناً بلا فائدة. كان للحجّ أن يكون محرّك العالم الإسلامي ليُرسّخ المسلمون ارتباطهم بحضارة، ليتعارفوا كما ورد في القرآن الكريم، ليتفاعلوا. أن يكون مؤتمرهم. إنْ هو إلّا جمع متناثر، ما يُفرّقه أكثر ممّا يجمعه، والحَجِيج موزّعون في بعثات ومخيمات، باسم كل دولة، ولن يتغيّر هذا لأن التغيير خطر.

يحجّ معنا هذا الموسم رئيس إيران أحمدي نجاد بضيافة من الملك السعودي.

ماذا يبقى من الحجّ؟ عمل خيري. تنظيم يتعامل مع الواقع دون أن يغيّره. بعض دروس الوعظ والإرشاد حول كيفية أداء الصلاة، وأداء مناسك الحج، Un rituel aseptisé. وقد بادرني سعودي قبيل صلاة العشاء وأعطاني كُتيّباً بعنوان **كيفية صلاة النبي** لـ«فضيلة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله ابن باز»، وقد لاحظ أني أصلّي بالسدل. أقوم بذلك عن قصد، تعبيراً عن هوية.

ما الفرق والمُكاء والتَّصدية التي يَعيبها القرآن؟

بعد صلاة المغرب تمشّيت في الأسواق المحيطة بالمخيمات.

علقت بذهني صورتان. الصورة الأولى لباكستاني وهو يقصد الجمرات يغذّ السير ويتقدم جمعاً من الحجّاج وهو يردِّد بلكنة: «لا إله إلا الله أنت سبحانك وإني كنت من الظالمين» ينطقها «من الزالمين». وشخص وراءه يخطئ في ترداد ما يلقنه فيصحّحه له. يردّد ما لا يفقه معناه.

الصورة الثانية هي لقصر الملك في أعلى الجبل يُطل فيه على جموع الحجّاج بمِنى. منظر أخّاذ، والله. منظر حركة الحَجِيج، دونما ضجيجهم ولا صخبهم ولا تَفَثهم ولا شعرهم المنفوش الذي يملأ الشوارع.. هكذا ينظرون إلينا.

ومع ذلك فللمكان جمالية لعلّها ذهبت مع ساكنيها الأوائل.

تذكّرت البيت الشهير:

ولما قضينا مِن مِنى كل حاجة

ومسّح بالأركان من هو ماسحُ

....

وسالت بأعناق المَطِيّ الأباطحُ

ذهب عني صدر البيت الثاني[1].

الخميس 11 ذي الحجة/ 20 ديسمبر
بعد المغرب (الساعة السادسة وعشر دقائق)

عدت توّاً من الجمرات بعد أن رميتها في أماكنها، الجمرة الصغرى ثمّ الوسطى فالكبرى. زحام شديد، وأقوام من كل فج، من

---

(1) أخذنا بأطراف الحديث بيننا.

سريلانكا، من إندونيسيا، من باكستان. لولا الكوفيات التي تتخلّل سيول البشر لخلت نفسك في أعماق آسيا. ويشتدُّ الزحام بالجمرات، ويقذف الحجّاج وكأنهم يقذفون عدواً حقيقياً أو هدفاً فعلياً. فإذا فرغوا قرأتَ على وجوههم البهجة والحبور. ولا يتمالك البعض من التعبير عن بهجته بالضحك. ثم يروغون يساراً عن موضع الرمي ويؤمّون الكعبة ويرفعون أكف الضراعة. وقد نصحني أحد المرافقين بالقول إنه دعاء مستجاب. وكانت امرأة -ويبدو من لباسها أنها مغربية أو جزائرية- تذرف الدمع وهي تبتهل..

وتذكرت وأنا عائد وسط الزحام الكاتب الإنجليزي من أصل كاريبي نيبول (Naïpaul) الذي يرى في شيوع الإسلام في آسيا استعماراً. هل يمكن اختزال الإسلام في طقوس؟ هناك النزوع الروحي للنبي ممّا تفصح عنه آيات عدة، ثم دعوة العدل التي يقوم عليها الإسلام. هو ذا بريق الإسلام كما في كتاب مكسيم رودنسون *La fascination de l'Islam*. هل كان هذا الدِّين يتسع لكل هذا الحشد، ولكل الأجناس والثقافات لو لم تكن أركانه متينة كما يقول كارليل في كتابه **الأبطال**، في الفصل المخصّص للنبي محمد، عليه السلام (ضاع مني دفتري الذي أخذت منه نقاطاً من هذا الكتاب).

تخمة الدروس بعد كل صلاة. وكلها حول المناسك أو أغلبها. درس ما بعد العصر أثارني لا لفحواه -بل كان من أشد الدروس سطحية- ولكن لأن صاحبه من عِلية القوم مثلما بدا في طريقة الاحتفاء به، وتوشّحه بعباءة سوداء على الدشداش ذات سدى رهيف، وتخصيصه دون سواه بطاولة. ولقد بدأ بالتفصيل حول

النعمة التي خصَّ بها الله أمة محمد، إذ هداها للإسلام، وهيَّأ لها بذلك أسباب الجنان التي لن يَرِدَها غير المسلمين. ثم أردف حول فضل جارحة اللسان الذي ينبغي أن يلهج بالثناء، ومن الواجب، وقد حظينا بشرف ضيافة خادم الحرمين، أن نتقدّم له بالثناء، وهو صاحب الأجر عمّا قدّم وما يقوم به لفائدة ضيوف الرحمن.

أيديولوجيا الوهابيين حاضرة ولكن بشكلٍ رفيق.. ولعلّ تداعيات 11 سبتمبر هي التي حدّت من غلواء «علمائهم» وُمطوّعيهم. إلّا أن المرء يَلمس تواجد «جيش» من الدعاة يبثون رؤيتهم ويَصُدّون «خطر» رأي مغاير أو توجّه آخر لا يتلاءم وأيديولوجيتهم.. لم يحدّثنا من الوعاظ غير السعوديين.

طُرْفة: صاغ صهري -زوج بنت عمتي- مصطلحاً للتدليل على الزحام: مُزْدحمة على وزن مُزدلفة.

(بعد العشاء)

لاحظت أن كثيراً ممن يقرؤون القرآن في المسجد يتلونه سِراعاً، بهَينمة، ولا يتدبّرون معانيه. إنها عبادة.

أقرّ أحد الوعاظ أنه يجوز رمي الجمرات قبل الظهر لعذر، وقال بذلك جمهرة من علماء أجلّاء وقد نقلت الخبر لجماعتنا رغبة مِني في أن نتحلّل من الجمرات ونتجنّب الزحام، ولكني لم ألحظ حماساً لأنهم أصروا -وفق السُّنة- على رمي الحجرات بعد الظهر.. قلت لهم لدينا أكثر من عذر، هو أن علينا أن نخضع لبرنامج المغادرة على الساعة الثالثة للقيام بطواف الإفاضة، ثم استشهدت بالقرآن، ودفعت إلى أن طواف الإفاضة ركن من أركان الحجّ، أما

الرمي فهو سُنّة، ولم يرد ذكره في القرآن، وختمت بأن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى فرائضه، فهل يهون عليهم أن نفوّت صلاة الجمعة وطواف الإفاضة؟ وأخيراً أذعنوا..

هذه العادات النابعة من سوء فهم لروح النصوص تتحكم فينا وتبطل العقل. هل يمكن التوفيق بين التديُّن والعقل؟

عقلية شعوبنا المتديّنة هي التي تفضي إلى نفاق حكامنا. والنفاق تعطيل لمقدرات أُمة.

في الصف أمامي بالمسجد كان سعودي يصلي النافلة. كانت عقبا قدميه مشققة. هو من «الرّعاع». وشعرت بتعاطُفٍ كبير معه. هو أخي. ولن نلتقي قط. وحتى لو التقينا فلن أعرفه. ما أقربه إليّ، وما أبعد أولئك الذين كانوا من عل قصورهم بمِنى ونحن عائدون من الجمرات ينظرون إلينا بمكبرات الصورة عبر الحائط الزجاجي. نحن بالنسبة إليهم أجزاء من سيل ينهمر، وهل قُدِّر لهم أن يُدركوا أن من هذه الأجزاء مَنْ ينظر إليهم ولا يرى فيهم إلا ذرات عابرة؟

ذو القدم المُشَجّة أقرب إليّ، باسم الثقافة والحضارة والطبقة. هو أخي.

علمت أن صهري وهو عقيد متقاعد في الجيش ترحّم يوم عرفة على زملائه وجنوده الذين قضوا في الصحراء.. قال له فوزي: لِم لا تكتب كتاباً عن تجربتك في الصحراء. ردّ: ما قد أكتبه لن يروق، وما قد يروق ليس حقيقة، ولذلك أفضّل الصمت.

أتبيّن عقلانيته. ممّا قاله إن الدين كان دوماً يُستغل من قِبل الحُكّام.

وأخيراً أنهينا الشعائر. طُفنا طواف الإفاضة. . لكن لا بدَّ من البدء من البداية. .

عقب الفجر مباشرة رمينا البارحة الجمرات الأخيرة. كنا نتوقع ألّا يكون هناك زحام ولكن جموع الراجمين كانت غفيرة -ولو هي أقل من الأيام السابقة- سيول البشر تتدفق في تواتر.

نلتُ بعدها قسطاً من الراحة والتمست من الجماعة أن يعفوني من الفطور، ولم أستيقظ إلا ضحى، حوالي الحادية عشرة، وقصدت بعدها المسجد لأقرأ القرآن وأصلّي الجماعة. لم يكن هناك من صلاة الجمعة. الكل غادر إلى مكّة.

تأهّبنا للمغادرة من الساعة الثانية ونصف زوالاً. غادرنا إثرها، ومنذ ذلك الحين ونحن لا نتحرّك إلا يسيراً والسيارات والحافلات «صدّام على صدّام» مثلما يردد أحد المرافقين السعوديين ويعني Pare-choc contre pare-choc، ممّا أثار ضحكنا. جحافل لا عدّ لها من الحافلات والسيارات. الحجّاج قيام ونِيام ورُكبان. ومنهم من نام على سطوح الحافلات. .

ووصلنا مكّة حوالي الساعة السادسة -ثلاث ساعات ونيف- لاجتياز أربع كيلومترات، والذين أتوا راجلين قطعوا المسافة في خمس وأربعين دقيقة.

وكيف شقّ السبيل وسط اللجّة الآدمية التي تحيط بالمسجد وتملأ أرجاء الحَرَم؟ سيول من البشر، والخطورة أنها كانت في الاتجاهَين المتقابلَين. . رجال الأمن غُلبوا على أمرهم، ينادون

بالتزام النظام بالعربية والفارسية والأوردو. لكن تموّجات الأبواق ومعنى النداء لا يصل ولا يبلغ الآذان أمام هدير البشر.. هو البحر.. وقد قرأت هذا الصباح أن جموع الطائفين ليوم أمس قُدِّر بمليون وسبع مئة ألف طائف..

وحَمَلَنَا التيار إلى الطابق الأول. انفصلنا عن النساء. فضّلن أن يبقين لحالهنّ. زحام شديد في الطابق الأول، واختلاط الراجلين والعربات والمقعدين والشيوخ والعجزة.. وغُلب عبد القادر -صهري- على أمره فصعدنا إلى الطابق الثاني، وهو السطح.. كنا نتنفس ملء رئتنا لكن ذلك لم يعفنا من الزحام، بل كان الزحام أشَد، وقُطْر الدائرة أكبر. كنا نقطع دائرة في حدود عشرين دقيقة، واستغرق منا الطواف ساعتَين ونصف. أذكر أصوات الحجّاج حين الاحتقان: «حرّك يا حاج»، بمعنى تحركْ. وحَرّك عندنا هي رَكَضَ بالخيل..

كانت هناك أشياء نَشاز: صراخ الأطفال. لِم يصحبُهم والديهم وسط الزحام ويعرّضونهم للخطر؟ لشيء لا يفقهون معناه ولا يدركون مرماه. أطفالٌ رُضَّع، وآخرون لا يكبرونهم إلّا بسنوات.. ثم رجال ملتصقون خلف زوجاتهم، في منظر مثير. نعم هم يفعلون ذلك صوناً لهن من الاحتكاك، ولكن أَنَسُوا أنهم يستفزون الآخرين؟.. والمكان مكان عبادة.. ثم الذين يتكلمون في هواتفهم الجوالة.

انثنيت وقد فرغت من الطواف في مكان، أتساءل وأنا أشرب ماء زمزم: هل لما أرى من معنى؟ هذه الحركات كلها هي للتدليل على فكرة. الركوع والسجود للتدليل على أن الله أكبر، والطواف لتلبية نداء الله، والسعي سعي الحياة، في حركة مستمرّة دائبة، ثم

شدّ وحزم وهرولة في أحايين. . وقفت وأنا أردِّد مع نفسي بالفرنسية: «أنا مسلم».

حكَت لي زوجتي عن شيء عظيم صادفَته وهي تطوف، ذلك أن امرأة مغربية تخلّفت عن جماعتها، وتلقفها لبناني، وكان لا يفقه قولها إلا لماماً، فسأل زوجتي أن تُفهمه قصد السيدة المغربية، وكانت مُسنّة وغير متعلِّمة، وأرادت زوجتي أن تأخذها معها لتطوف بها فأبى إلا أن يَطوّفَ بها ثم يوصلها إلى حيث جماعتها. ولم تكن المرأة منقبضة ولا مكترثة. كانت، حسب زوجتي ومرافقتها رفيقة، زوجة فوزي، Zen. يحق في هذا المشهد ما ورد في الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ. . .﴾، (سورة الحجرات، الآية 10).

تخلّف عنا عبد القادر في الطواف والسعي. والتقينا به وقد فرغنا من السعي. انتظرناه حتى انتهى. شققنا سبيل العودة بعُسر. تخلّف فوزي لقضاء حاجته ثم تاه. وانتظرناه بين خوف ورجاء. هي أشياء عادية معتادة. هي أشياء طفيفة أمام عظمة التجربة وقوتها. فعند الصباح يحمد القوم السُّرى، كما يقول المثل العربي المستقى من ها هنا، من واقع حال الذين يضربون فَلَوات الصحراء ويقطعون أكباد الإبل.

أخذتني سِنةٌ من نوم ونحن عائدون في اتجاه جدة. تشاجن الحديث بيني وبين السائق بعدها الذي خلته سعودياً، وهو كذلك بلباسه ولسانه، لكنه ليس كذلك في واقع الأمر، لأنه باكستاني، وُلد من أبوين باكستانيَّين هنا ولم يزر باكستان قط واسم ابنته رواء وابنه وليد. وقد سألني عن معنى اسم بنته فقلت بالبديهة إنها مشتقة من «روي» وهو الامتلاء بالماء ومن ثمة بالخصب والحياة والجمال. .

وتوقفنا بمطعم وتناولنا العشاء وحرصت أن يكون السائق معنا، ثم أعطيته نائلة جزاء وفاقاً على خدمته لكنها كانت بالنسبة إلي أكثر من جزاء على خدمة، كانت تعبيراً عن تعاطف، عن أُخوَّة. وقد رفضها، ووضعتها له في جيب عباءته قائلاً: هي ليست لك ولكن للأولاد.

أليس هذا السائق صهيباً ثانياً أو بلالاً أو سلمان الفارسي؟ فهو لم يتحرّر لأنهم ضنوا عليه بالجنسية. فهل هذه الأرض خالصة للعرب ولقريش الحديثة، أم هي مِلك للذين هاجروا في الله وأسلموا أمورهم لله؟

فهل مناسكنا وتعبُّدنا مكاء وتصدية أم أن حجّنا هجرة وإسلامُ أمرنا لله؟ ما كانت دعوة محمد عليه السلام أن تبلغ أقاصي الأرض لو لم تكن دعوة في الله، في التآخي، في المساواة.

فهل هي جاهلية جديدة مُغلّفة بغشاء الإسلام؟

العصر (الساعة الرابعة إلّا ربعاً)

يُؤْثر عن النبي قوله إن الحجّ عج وثج. . وأود أن أقف على معانيها، ومعنى عرفة في قواميس اللغة حينما أعود إلى المغرب.

(ما أفهمه من كلمة العج أنها قريبة من العجاج، وهي الريح الصرصر، وعج بالقوم امتلأ بهم. وما أفهمه من الثج وهو أن الكلمة قريبة من الثجاج، وهو الماء العذب، وقريبة في اشتقاقها الأكبر من الثلج، ولا شيء أحب للعربي وهو ابن الطبيعة الحارة والرمضاء من البرد والثلج والقُر، ومنه قرة العين).

فبعد العج الثج.

لم أصحب معي من الكتب في مِنى إلّا كتابَين: القرآن الكريم، و**تاريخ الأصولية** لكارين أرمسترونغ[1]، وهي من خيرة المختصّين في الإسلام، أصوله وحضارته. وممّا قرأت في وقوفها على تجربة علي شريعتي -المفكّر الإيراني- عن الحجّ، من أن طواف الحاج حول الكعبة هو سيل، وأن الإنسان قطرة من ذلك السيل ولا يمكن أن ينفصل عنها، قوّته من قوة السيل. كنت شعرت بالشعور ذاته، ولا أدري أهو توارد أفكار خطر لي، أم أنه رجع صدى لما قرأت لشريعتي لكتاب عنه بعنوان **هكذا تكلم شريعتي**، كنت اقتنيته من بيروت Une réminiscence.

وعلى كل، فهي صورة تفرض ذاتها على الرائي.

كنت أنظر إلى جموع الطائفين وأنا من علٍ الطابق الثاني للمسجد، فأرى فيه سيلاً هادراً، يتمحور حول بيت يطوف حوله، ويتمحور حول فكرة جامعة ويطوف حولها. لا يبتعد عنها، ولكنه ينظر إليها من عدة جوانب، أو من عدة أركان.. يبدأ من الركن اليماني، واليماني هنا تعني الجنوبي، ثم يُحوّل النظر، من خلال الحركة، من خلال الطواف، ولا يتحول النظر، أو لا ينبغي أن يتحول عن المركز، عن القطب، البيت، أو الفكرة الجامعة.

أما السعي فهو بحث، وهو مقرون بالجهد وطلب الرزق، وقد يعتري هذا السعي قلق واضطراب، ولذلك ما يُعتّمُ المرء أن يُهرول، وهي هرولة في طرْفَين قصيرَين، ثم يعود المرء إلى مشيه القاصد المتأنّي. الهرولة أو الاضطراب في طلب الرزق أمر طبيعي، ولكنه

(1) Karen Armstrong, *The Battle for God: A History of Fundamentalism.*

حيّز قصير قبل العودة إلى الوضع الطبيعي.. وحسب المعتقد المتواضع حوله، فهي هاجر التي كانت تهرول بحثاً عن الماء لرضيعها. وهذه الهرولة لا تكون إلّا من أجل الأبناء، إلّا لمسؤولية، وهذا المخاض الذي كان يتردّد في ذهن هاجر هو مخاض أو سعي لبلوغ الماء، لبلوغ الخصب، لبلوغ الحياة.

حركة السعي تحملُ معنى المجاهدة في الحياة.

شعارا الإسلام الأعظمان هما «الله أكبر»، إذ الله أكبر من كل كبير، من همومنا وأتراحنا، من أفراحنا ومتاعنا، ممّا يضطرب أمام ناظرينا من آراء ورؤى ومنظومات وأشخاص، ثم شعار «لبيك اللهم لبيك»، هو دعوة استجابة لله، أو عودة إليه.

كلاهما يُعبَّر عنهما بحركتَين: حركتَي الركوع والسجود في الصلاة للتدليل على أن الله أكبر من أي معبود، ومن أي قوة، وحركة الطواف للتدليل على العودة وتلبية النداء. نداء الله..

الأحد 14 ذي القعدة/ 23 ديسمبر

صادف وأنا مُقبل على الحجّ أن زارني قبل شهر ونيف بمقرّ إقامتي بمكناس السي العيساوي المسطاسي، وهو رجل فاضل وواحد من موقّعي وثيقة الاستقلال (11 يناير 1944)، ممن لا يزالون على قيد الحياة (توفي في نوفمبر 2017) فأهداني **تفسير المراغي**، وأخبرته بنيّتي في الحج، فكان ممّا قاله لي إنه حجَّ في الستينيات مع السيد إبراهيم الكتاني (واحد من كبار علماء المغرب)، وأن هذا الأخير اشتكى من الإعياء، فقال له المسطاسي ممازحاً: على قدر إيمانك تكون راحتك أو تعبك.

أسوق هذا الحديث وقد أعدت قراءة فصل من كتاب حمودي عن الأُضحية أو الهَدْي أثناء موسم الحجّ. كان تصويره مقزّزاً، لأن نيّته لم تكن أن يفهم وجدان الحجيج ولكن أن يرصد الحج كظاهرة «أنتروبولوجية».

«وقر في ذهني أن سليم أدرك وللمرة الأولى ما يحدوني من مشروع، ولم يتمالك من التعبير عن دهشته، «تُفَكِّر». . ألا يملؤك نفس الإيمان الذي يملك شغاف أنفسنا؟ كلٌّ ونيته (أو بالدارجة: كلها ونيتو)».

أقول:

Tout est question de prisme[1].

الثلاثاء 16 ذي القعدة/ 25 ديسمبر

أمس عيد ميلادي. مرّ عادياً. وحتى زوجتي ذهلت عنه ولم تنتبه إليه. . مُقامنا بجدة غلب عليه إغراء «الشوبينغ»، وأنا أتأفّف من «الشوبنيغ». إغراء لتلبية شهوات النفس، وقد قرّرت ألّا أشتري إلّا ما أحتاجه، فليست جولاتي في الأسواق ممّا سَيُملي عليّ ما سأشتريه، بل ما أحتاجه هو ما سيملي عليّ الانتقال إلى الأسواق. الانتقال من الإغراء إلى الحاجة. والعملية تحرُّر. ولقد رضخت لا للإغراء بل لواجب شراء الهدايا. وقد حرصت أن تكون هدايا مفيدة. أحذية لرياضة المشي بالنسبة إلى بعض أصدقائي ومساعديني. زوجتي فضّلت السجادات. .

---

(1) المسألة مسألة نظر.

ثم زرت مكتبة. وجدتها أشبه ما تكون بقرطاسية. كتب دينية أغلبها. تصفّحت كتاباً ضخماً عن عذاب القبر، وقرأت في صفحاته الأولى «تصويراً دقيقاً» لما يتعرّض له الميت من عذاب في قبره. ثم أعدت الكتاب. لكني وجدت كتاباً نفيساً كنت أبحث عنه منذ سنين: **العروة الوثقى** لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.. والذي يهمني فيه فكر جمال الدين الأفغاني، وكان ممّا قرأت في تصديره تقييم إرنست رينان للأفغاني، من أن عقله آري، وأن الإسلام مسحة خفيفة أو غلالة لم تعُفَّ على جوهره الآري الذي يُذكّر بابن سينا وابن رشد!

تحليلات الأفغاني للأوضاع السائدة في عصره سياسية بامتياز، والانتماء الحضاري عنده أهم من الاعتبارات الميتافيزقية. هذه انطباعاتي وأنا أقلِّب الكتاب أمس.

خرجنا البارحة للعشاء بفندق شيراتون بضيافة مغربي يشتغل في البنك الإسلامي السيد سعيد القرشي. شخص ودود وذكي، على بيّنة من الأمور. المدرسة الفرنسية صاغت نظرته للأمور، بيد أنه متديّن عن إيمان وبلا بهرجة.

كان سعيد هذا يمازحني بالقول «عمي الحاج». قلت له: «إني لأجد العَنَت الشديد للاستئناس بلقب الحاج، فما بالك وأنت تضيف عمي؟». وردّ: «نعم أعمي الحاج».

مكناس - 27 ديسمبر

وصلت أمس المغرب.. انتهت تجربة أو ابتدأت أخرى. لا أدري. سألني واحد ممن استقبلوني، محمد البوحديدي، وقد أفضْتُ

في الحديث عن التجربة: «إذاً هي إيجابية؟». أجبت: «هي إيجابية بالتأكيد». صور التوادد والإيمان العميق إن هو إلّا قوة وتعالي. هناك أشياء سلبية رصدتها، ولكن هناك قوة كامنة تزري بالجوانب السلبية.. لا شيء يمكن أن يُعبّئ الشعوب الإسلامية غير الإسلام كما يقول جمال الدين الأفغاني. هو بوابة إصلاحها.

أخذت في قراءة **العروة الوثقى** لأقف على فكر رجل عميق، وذهن ثاقب. والمشكلة دوماً هي كما كتبت في واحد من مقالاتي السابقة قبل أربع أو خمس سنوات عن محمد مهاتير في مجلة *L'essentiel* التي كان يصدرها حسن بن عدي، هو أن العجم المسلمين بقدر بُعدهم عن النصّ -اللغة العربية- بقدر قربهم من روح الإسلام، والعرب بقدر قربهم من النصّ بقدر بُعدهم عن روح الإسلام. ما أن يأخذ أحدهم في الكتابة أو الحديث حتى يوظّف أحاديث ونصوصاً ما أنزل الله بها من سلطان تَغُلُّ الفكر، وتصدّ النقد، وَتُعَطِّل التطور.

28 ديسمبر

بدأ سيل المهنّئين يتقاطر على البيت. استأنفت العمل مباشرة، وحرصت أن أترأّس اجتماعات بالولاية تمسُّ الأمن وتأهيل المدينة والمبادرة الوطنية للتنمية البشرية، وذلك لأفصل بين الواجب والارتباطات الشخصية، لكني رضخت لضغط العادة والمجتمع، وفتحت البيت بعد العصر للمهنّئين. كل هذا يدل على تعلُّق المغاربة بالإسلام وما يرتبط به من عادات وطقوس. فلكم سمعت من «هنيئاً

لك»، بل سمعت أن كل من حجّ فقد اختاره الله ونادى عليه «وما هي شي بفلوس» وسمعت من قال لي: «ما يحج غير اللي رجل!».

ذكَّرني هذا بما كنت قرأت في **العروة الوثقى** من أن المسلمين يَقبلون أن يتعرّض مسلم لكل أشكال البلايا ولا يقبلون بحال أن يرتدَّ عن دينه، ويتناقلون الأمر جيلاً عن جيل، كرُزْء وفضيحة.

لم يُؤثّر خبر اغتيال بينظير بوتو أمس على احتفالية المهنّئين. لم تُثَر في الحديث، ولا أدري لِم، ألأنها امرأة، أم لأنها متغربة؟ لم يجرِ الحديث عنها في كل همهمات صالون الإقامة. كانوا منصرفين إلى هذا الركن الخامس من الإسلام يتحدّثون عنه وعن القائمين به..

وبهذا أنهي هذه اليوميات المرتبطة بالحجّ.

الأحد 30 ديسمبر

لم أُنْهِ بعدُ هذه اليوميات. خواطر تُلحّ عليّ لم أُثبتها في إبّانها، ربما لأني اعتبرتها غير خليقة بأن تُدوَّن، وهي تُلحُّ عليّ الآن. صورة أفريقي في المسجد النبوي وقد أذَّن المغرب، فانتهز فاصل الأذان وإقامة الصلاة ليفطر -كان بلا شك صائماً- وكان طعامُه الخبزَ القفار (الحافي) يغمسه في الماء، وكان محياه يفيض سكينة وطمأنينة. رمقته فجأة وأنا أبحث عن مكان أضع فيه نعلاي قبل الصلاة. ولذلك لم أُثْبتْ تلك الصورة في دفتري، وعاودتني وقد عدت للمغرب قوية مؤثّرة.

ذكرى حلم وطمأنينة وقد انتصبت أمامي بنت أحببتها في سالف عمري في فجر شبابي. تعود في المنام جميلة بهية، مجرّدة من كل شيء، فآبى ويتبدّى لي ولدي إسماعيل وبنتي سامية فأرفض عرضها.

كان ذلك الحلم بمِنى. وقد تذكّرت ابن عربي وصورة الفتاة التي تبدّت له، رؤيا من الكعبة. وكانت بداية **الفتوحات المكّية**.

الذكرى الثالثة وكانت بمِنى، وهي حلم لا أثبت عليه جيداً.. تراءى لي شخصي وأنا مطمئن البال هادئ الضمير، وأشخاص يتساءلون هل هو ذاك الذي نعرف.. ثم لا أثبت على شيء..

هل هو بعث جديد؟..

همَزات

كنت خارجاً من المسجد النبوي بعد صلاة الفجر، وما أن بلغت ساحته حتى ابتدرني شاب وسيم، يلبس لباساً عصرياً، وهو ما أثارني في حِمى المسجد، وفي موسم الحجّ، فإذا هو يحدّثني بلسان أمازيغي:

- يا ابن عشيرتنا أريد أن أتحدث إليك (**أوينَّخْ، ريخْ أذاكْ ساوْلْخْ**).

نظرت إليه وقد راعني أن يلاقيَني في ذلك الحمى شاب يتكلم الأمازيغية، فقلت متأدِّباً:

- ليس وسط هذه الجلبة، تَفضّل على أثَري إلى الفندق. . (**وْو ريدْ تمان ن مْدّن، ظْفاري ئي لوطيل**).

ولم يُكلِّم أحدنا الآخر حتى بلغنا ردهة الفندق، وأشرت عليه بالجلوس، فجلس، وتقدّمت إليه بالحديث باللغة العربية:

- تفضَّلْ.

وأبى إلّا أن يكلّمني باللغة الأمازيغية. كان ممّا أذكره من حديثه المسترسل الطويل ما أثبته ها هنا:

- لقد كنت فخرَنا حين حملت مشعل لغتنا الأمازيغية تنافح

عنها، ولقد كنتَ من أوعى الناس أن اللغة ليست إلّا جانب من معركتنا لنحقّق ذاتيتنا، ولننفصل عن هيمنة العنصر العربي وغطرسته. كنتُ أقرأ كتاباتك بشغف، وكنت أراك حاملاً لمشعل صراع جيل، ولذلك لم أفهم أن تأتي إلى هنا لتؤدّي فريضة الحجّ... هو هدم لكل ما بنيت. هو إجهاز على تراثك الفكري والثقافي. الإسلام ليس إلّا غطاء لهيمنة العنصر العربي. ألا تَذْكُرُ قول الأديب الإنجليزي نيبول ذي الأصل الكاريبي؟ هل ترضى أن نظلَّ مَسودين بأرضنا؟ ولسوف نظل كذلك ما دام الإسلام مهيمناً بساحتنا ثقافياً وسياسياً. ليس الإسلام إلّا خديعة من أجل تحقيق إمبريالية العنصر العربي.. فُرس وأتراك ومصريون وأفارقة يُعفِّرون جباههم للعروبة من بوابة الإسلام.. وهل تريد أن نكون كذلك نحن الأمازيغ؟.. نحن في مفترق الطرق بين الفُرس والأتراك الذين حافظوا على لغتهم وسؤددهم، ولو هم في جانب كبير أضاعوا روحهم، وبين مصر التي أضاعت لغتها وروحها.. ما تزال لغتنا قائمة رغم كل شيء، ونودُّ من خلالها أن نُبقي على روحنا، تلك التي نستمدها من عهود سحيقة قبل أن يحلَّ الإسلام بأرضنا. عُدْ من حيث أتيت، وإن لم تفعل، فاجعل من سفرك هذا تجربة أكاديمية، وكشفاً أنتروبولوجياً. ألْقِ ظهرياً بكل هذا العبث..

ارتعتُ لما سمعت، ونهضت دون استئذان، وقصدت غرفة الفندق، ونظرتْ إليَّ زوجتي فقرأتِ انزعاجي، ولم تجرؤ أن تسألني، ولو فعلت لما حدثتها بشيء.

وكدت أنسى الحادث، بل أقبرته، ولم أُحدِّثْ به أحداً..

وحدث يوماً بعد أن صليت العشاء في المسجد النبوي بالمدينة

أنْ خرجت إلى ساحة معركة أُحد، وارتقيت ربوة الرُّماة وأنا أتملّى منظر الساحة التي احتضنت المعركة، وأنظر إلى الربوة التي احتمى بها المسلمون الأوائل قبل أن تستثيرهم الغنائم، فينزلون منها، فيُغير عليهم خالد بن الوليد بجمعه... وما أن بلغت أسفل الكُدية حتى بادرني الشاب الذي التقيته قبل أيام خارج المسجد النبوي.. هو عينه، بابتسامته الماكرة، وهو يحدّثني هذه المرة بالفرنسية، وكانت فرنسيته راقية عذبة:

- هي ذي ساحة معركة أُحد التي قرأت عنها مرات ومرات. أفلا ترى أنها لا تعدو أن تكون ساحة ملعب كُرة القدم، والمعركة مناوشة أبناء حي، لا أكثر ولا أقل، ضخّمتها الأسطورة... ألا ترى قوة الأساطير؟.. ومع ذلك فمعركة أُحد في وجدان المسلمين تُزري بمعارك البيلبونيز الإغريقة، بل بمعركة أوسترليتز ما بين نابليون وروسيا ومعارك فردان والمارن في الحرب العالمية الأولى...

وأغذذتُ السير غير آبه بمحَدِّثي الذي كان يتعقبني، ولم ألبث أن صرخت في وجهه:

- Fous-moi la paix (أُغْرُب عن وجهي).

فردَّ في خُبث:

- أنت أحسن حالاً غاضباً منك هادئاً، وأنا أُفضِّلك على هذه الشاكلة، على كل حال. غضبك دليل وعيك.

ثم توجّهت إلى السيارة، وما أن هممت بفتح الباب حتى نازعنيه، وأراد أن يجالسني في المقعد الخلفي للسيارة، فصحت في وجهه:

- أُغربْ عني، لِمَ لا تكفّ عن تعقبي..

- أنا ملازمك حيث رحلت. لن تُفلت من قبضتي..

- ما أتيت إلى هنا إلا لأنأى عن ضُرَبائك، لقد كنت أعتقد أني خلّفتهم ورائي ظهرياً.

- أنت واهم.

- من أنت؟ صرخت في وجهه.

- أنا أنت، أنا عقلك.

وعدت أدراجي، والسائق يقودني إلى الفندق، وأنا لا أنبس ببنت شفة.

ولم ألتقِ الفتى بعدها... كنت في شغل عنه، وكان هو في شغل عني.

ثم أتممت المشاعر كلها، ورُغْت على جدة للاستجمام، وخرجت كما يخرج باقي الحجيج لشراء الهدايا. كنت أرتدي دشداشاً على شاكلة أهل الشرق وقد أسدلت لحيتي.. وما أن خرجت من سوق البلد حتى بادرني طفل صغير يجذبني من جُبَّتي ويكلّمني باللهجة المغربية:

- أعمي، أعمي..

فحسبته متسوّلاً، ومددت يدي إلي جيب جُبّتي لأعطيه ريالات.

فردّني في رفق باللهجة المغربية:

- الله يكثر الخير..

ثم أخذ يتكلم وأنا أصغي إليه:

- أنا مبعوث من سيدي ليُذَكِّرك بالحب الذي يُكنُّه لك، والتقدير الذي يخصّك به، والآصرة القوية التي تجمعكما، وهو لا

يريدها أن تنفصم بعد إذ أدّيت فريضة الحجّ، وهو يبعثني لكل الحجيج لكي أُذكِّرهم العهد الذي يربطهم وسيدي..

قلت:

- ومن سيدك يا بُني.

- هو ذاتك، هو هواك، هي مُتَعك... فهل لك أن تلتزم بألّا تدعها وقد أدّيتَ المناسك؟ إنْ هي إلّا طقوس.

كنت أحكي هذه القصص لبعض من خُلّاني وقد زاروني غداة عودتي من الحجّ. كانوا يحسبونني أمزح، ولم أكن مازحاً. كنت نهِباً لتجاذبات صحبتني أثناء الحجّ وبعده، ولم تهدأ إلّا كما يهمد البركان، ويخمد أوراه وينطفئ لهيبه، رويداً رويداً..

حكيت القصة لوالدتي، فارتاعت، وهي الأمازيغية، أن يتعقبني واحد من بني جِلدتها ليُفسد عليّ حجّي..

قلت لها: وقد بلوتُ أشد من ذلك بمِنى.

قالت: وما ذاك؟

قلت: خرجت بمِنى ليلاً وقد هجع الحَجِيج، فقادتني رجلاي إلى مكان خلاء لا نأمة فيه ولا حركة. فإذا بشخص قوي البنية يباغتني من خلفي ويمسكني من رقبتي فيخنقني خنقاً حتى كاد لَيُقضى عليّ. صرخت، ولكن صراخي ذهب هباء، فما من مغيث ولا مَن يستجيب النداء. ثم أحكم قبضته عليّ بأشد ممّا فعل أول الأمر، وأيقنت أنه قاتلي. فاستجمعت قواي، وانفلتُّ من قبضته، ثم دفعته عني دفعاً قوياً حتى هوى على الأرض، وسمعت حشرجته، واستجمعت أنفاسي من شدّة الجهد واللهاث، وأيقنت أن عدوي لن ينهض وقد طرحته أرضاً. فعدت أدراجي إلى حيث الحَجِيج، وسط

الليل البهيم ولو أن القمر يتوسط كبد السماء، ولكنّ غيوماً كانت تحجبه. وما أن خطوت خطوات، حتى سمعت صوت الشخص وقد نهض من عثرته، وهو يتعقبني كالثور الأهوج.. فتهيّأت لهجمته، ودفعته بقوة، ولكنه كان أشد مراساً من ذي قبل. كان قوي العزم، شديد البأس، لا يرضى بالهزيمة.. وكنت فاتر الهمة، ضعيف الأيَد، وكنت موقناً أنه سيُجهز عليّ في ذاك الموضع الخلاء، وأن صحبي سيفتقدونني فلا يجدونني، وأني سوف أُخلِف ما إليه قصدت، حجّ البيت والوقوف بعرفة.. ودام الصراع إلى ساعة متأخِّرة من الليل، ولم يبقَ للفجر إلّا لحظات، ثم انبعث نداء المؤذّن بنداء الله أكبر، فجمعت جَمْعة قوية ضربت بها الشخص القوي لم ينهض بعدها.

ساور الشكّ أمي، فنظرت إليّ مستفهِمة:

- وهل أصابك بمكروه، وهل خلَّف جرحاً أو رضوضاً.

قلت لها:

- إنما حكيت مجاز، وأن الأشخاص الذين تحدثّت عنهم هم نداء منبعث من نفسي.

عقَّب والدي ليُهدئ من رَوْع والدتي:

- بل هو الشيطان، وهو يحضر في الحجّ، وعند صلاة الفجر، وأثناء توزيع الإرث.

في أماكن متباينة وأزمنة مختلفة، عاودتني تلك الهمَزات، ولم تكن بتلك الحدّة التي بلوتها.

كنت مُتَّكئاً على عمود من أعمدة مسجد بمكناس قبل صلاة الفجر. . . كان البرد شديداً، وكنت أرتدي جلباباً وسلهاماً، وأحرص أن آتي المسجد ماشياً من مقرّ إقامتي، وكان واحد من مساعدَيّ يأبى ذلك خشية عليّ، وكنت أجد في المشي إلى المسجد متعة، فأنا أُحَدِّث نفسي، وأتخلّص من أوضار الدنيا وهمومها.

كنت متكئاً على عَمود من أعمدة المسجد في هدوء وسكينة، حينما بدرَ من نفسي نداء كما لو هو يجيب على دعوة النفس والهوى. . كل ذلك متع عابرة، كلها تنال منك وتحيلك حطاماً. هل ترضى بذلك؟ وهل سلِم أحد من إغراء الحواس؟ وكيف تريدك حرّاً وأنت مستعبد للذّة؟ وهل أُوتي عظام، أو أبطال كما يقول صاحبك نيتشه، الذي كنت تكلف به، إلّا باللذّة، وهل أهينوا إلّا منها، وهل رضخوا إلّا بها. . . كيف تذهب إلى النبع القَرَاح الذي كرعت منه معنى الوجود والكرامة، وتشوبه بقذى اللذّة والمُتع. . ستسلك سبيل الوحدة، ستنأى عن كل إغراء لتكون قريباً من ذاتك، لتكون قريباً من حقيقتك. . وستتزود كلّما داهمك نداء النفس وإغراء الهوى بالصبر والصلاة. . وهي تنهى عن الفحشاء. والفحشاء حب الدنيا كذلك.

والفحشاء بُخْلٌ وتكالب على حطام الدنيا. نعم، هي النفس البشرية تحب المال والشهوات، ولكن الإسلام يتحدث إلى نفس صقيلة بالتزكية. هو لا يريد من الإنسان أن يبقى مادة خاماً. هو لا يغازل عواطفه وغرائزه. هو لا يتحدث إليه كما لو هو طفل مدلل، بل بصفته مُكَلَّفاً بالغاً مبلغ الوعي. الإسلام يستجيب لحاجات الإنسان، هو يُقرّ بغرائزه وهواه ولكنه يتجاوزها لما هو أسمى، بالتزكية. فالنفس البشرية تحملُ نوازع الخير وإغراء الشرّ، وهي قابلة للتقوى، قابلة للفجور.. هي أرض إن تمَّ تعهّدها أعطت الثمار الطيبة، وإن تُركت وشأنها أتت بالشوك والطلح والقتاد.

وكبّر المكبر للصلاة، فصلّيت، ولمّا فرغت خرجت من المسجد هادئاً مطمئناً، وأنا أردد الآية: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾، (سورة الفجر، الآيات 27-30)، وقد نفذتُ إلى معناها...

وهل ترجع النفس إلى ربها إن لم ترضَ بنصيبها وقسمتها؟ وهل تبلغ مرحلة التزكية بأن تكون مَرضيّة إن لم تبادر الحياة بهذه النظرة الفلسفية التي لا يساورها القلق. خلاصها لوحدها ليس بذي معنى وإنما هي تبلغ الخلاص إن انغمرت في شؤون الناس، ودخلت في عباد الله، وجعلت همومهم همّها. ليس الخلاص في الإسلام خلاصاً فردياً.

وهان عليّ إغراء النفس، إلّا من غمزات، ثم ما تلبث أن تنجلي..

ثم كنت بإسطمبول بعد شهور من ذاك الحديث مع نفسي، في عطلة مع الأولاد في شهر ذي القعدة من سنة 1429 الموافق

لأغسطس من سنة 2008، وتعذّر أن أصلي الجمعة بمسجد السلطان أحمد، المعروف بالمسجد الأزرق، لأن الرئيس الإيراني أحمدي نجاد وقد حلَّ بإسطمبول كان يؤدّي الصلاة به، فعسُر السير وقد أحاطت عناصر الأمن بالمكان.. فاضطررت أن أصلّي الجمعة مع شباب أتراك بمقرّ جمعية بشارع الاستقلال.. وأمّ بنا الصلاة شاب بوسني، وكانت خطبته مزيجاً من العربية والتركية، ولما أن أنهينا الصلاة، تناولنا الغداء سوية. كان يرافقني ابني ولمّا يُجاوزِ السابعة من عمره، فنظرت إليه وسألته: هل تفهم ما يقوله هؤلاء الذين نحن معهم؟ قال: لا. سألته: أتجدهم ودودين؟ (مزيانين باللهجة المغربية). قال: نعم. قلت: أتدري لِم؟ قال: لا. وتلوت عليه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (سورة الحجرات، الآية 10).

كنت في الحقيقة أحدّث نفسي.. وكأني لحظتي تلك قد وقفت على عبث الأعراق وجهالة الأنساب... هؤلاء هشّوا بي، ولا أعرفهم، وغالب الظن أني لن ألتقي بهم، ولو التقيت بهم يوماً ما فلن أعرفهم، ولقد جمعتنا آصرة هي فوق الأنساب وتتجاوز الزمان. ومن أكون؟ عابرٌ وسط عابرين. أما الآصرة فلا. أما الإسلام فأثيل. وتهاوى من فؤادي صنم الأعراق.

ومرة، وأنا في بيتي بشاطئ الهرهورة، وقد عدت من المسجد بعد صلاة الصبح، ألمّت بي الهواجس والأشجان. كان الأولاد قد بقوا بمكناس لينهوا الدراسة، وقد اسُتغني عني كوالٍ في أفق ترتيبات أقدمت عليها السلطات العليا في البلد قبيل الانتخابات المحلية ليونيو 2009. كنت بمكتبي، وسط حشد من الكُتُب. أجَلْتُ نظري وسط الرفوف. أغلبها فلسفي من منزع غربي يدعو إلى العقل..

وأهمّتني أمور الدنيا. فكّرت في الأولاد وقد انفصلت عنهم لأنهم يتممون الدراسة بمكناس. فكّرت في زوجي الحامل.. ثم أزحت ذلك عن ذهني، وقصدت ديوان الشاعر الإيرلندي ييتس، ففتحته، وكان شاعري المحبّب باللغة الإنجليزية. لم أثبت على شيء ممّا كنت أقرأ. كانت رسوماً لا تفي بمعنى. ألقيت النظر على الأبيات التالية:

Turning and turning in the widening gyre.
The falcon cannot hear the falconer;
Things fall apart; the center cannot hold;
Mere anarchy is loosed upon the world...
Surely some revolution is at hand.

يُحَلّقُ النسر في الأعالي
لا النسر يسمع حادِيَ النسر،
والأشياء تتهاوى، والمركز بلا مساك
والعِقد قد انفرط، والفوضى عمّت العالم.
ثورة تلوح في الأفق حتماً.

طرحت الديوان جانباً ثم فتحت القرآن الكريم وسبحت في أنواره، وانجلت عني الغشاوة..

وقرأت سورة الجاثية:

﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ

ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ * تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾، (سورة الجاثية، الآيات 1-6).

وهل تُزري هذه الآيات بعقلي؟ كلا. بالعقل يَسَّاءَلُ الإنسان عن كنه الكون، ثم لا يكون العقل غاية، بل منطلقاً لشيء أسمى. لمعنى الوجود، لغاية في الحياة.

ما صرفني عن هذا النبع الثَّر؟

هو ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾. (سورة الجاثية، الآية 20).

عجباً. فِيمَ كنتُ من ذي قبل لا أهتدي لأسرار القرآن؟

كنت من المُقْمَحين. كم من مرة مررتُ على الكلمة ولم أهتدِ لمعناها، كما مررت على الحياة ولم أنفذ للغاية منها؟ هل تدري، يا صاح، ما المُقمح؟

هي البعير حينما تَغُلُّها أغلال تشدُّ رأسها وتمنعها أن تَرِدَ الحوض..

هي ترى الماء ولكنها لا تهتدي إليه لأنها لا تستطيع النزول إليه.

كنت مُقمحاً، رافع الرأس، أأبى أن أنحني، مُعتدّاً بعقلي ووضعي.. فلمّا انحنيت ارتويت.. كان انحناءً، وركوعاً وسجوداً لأنهل من نبع صافٍ يُسبغ على حياتي معنى، ويُسرِّي عني من كروب الدنيا، ويمدّني بالقوة، ويمنحني العزة والكرامة..

وهل أقبرت عقلي؟ كلا.

أفلا تدعوني تلك الآيات إلى أن أضبط جماح النفس؟ أفلا تدعوني أن أُعمل عقلي لأفهم، أو أسعى أن أفهم أسرار الكون..

بل هي لا تضع أمامي موانع. تدعوني أن أجعل العقل صاحباً لا سيّداً، لأن للعقل شطحات، لأنه يملأ النفس غروراً، لأنه قد يُسوّي بين الخير والشر، بل يهزأ بهما، لأنه لا يمنح للحياة معنى، حتى لو هو فكّ أسرار الكون.. وهل تستقيم الحياة بلا حدود؟ ماذا لو تجاوزنا حدود الأخلاق؟ وماذا لو أضحى الإنسان حادثة؟ وماذا لو استنسخ الإنسان ذاته؟... أليس مفهوم الحدود مفهوماً فلسفياً يحيلُ إلى عقد وجودي، شبيه بالعقد الاجتماعي، يتنازل بمقتضاه المرء، أو المسلم (والمسلم مفهوم فلسفي ينتهي إليه الإنسان) عن جزء من عقله، أو يَضبط غلواءه، من أجل شيء أسمى. من أجل معنى للحياة. وهل تعطي فلسفة العبث معنى للحياة؟ كلا.

كانت أشعة الشمس قد أخذت تنجاب على الأرض. خرجت إلى الشاطئ أمشي على جنباته وأنا أتملى النوارس وهدير الموج ينكسر على الصخر، وصيّادون وقد اتخذوا مُقْعدهم على حافة البحر وألقوا بصناراتهم.. ماذا لو وقفت على أعراض الغرب أستكشفها؟ ألسنا صورة منه؟ وماذا لو كانت هذه المرآة منكسرة، فأي صورة ستعكسها إذّاك؟

وكان من تلك الخاطرة كتاب، صدّرتُه ببيت الشاعر ييتس..

ثورة تلوح في الأفق حتماً...

هل غلبت ذلك الوحش الضاري الذي ترصَّدني بمِنى؟ لقد انهزم ولمّا يُدحرْ. لم يعد يداهمني كما فعل بمِنى، ولم يعد يستعمل القوة وإنما يجنح إلى الحيلة والكلمة الرقيقة، وينفذ إلى دخائل نفسي أحياناً بالحديث الممتع، والقول الدامغ، والدعوة المُغرية..

- هيا، ولِم لا تنال حظك من متاع الدنيا ومتعها؟ وما العيب في ذلك؟.. لقد أقلعتَ عن شرب الخمر، ولا أفهم لمَ في حقيقة الأمر، وكانت لديك حصيلة من النبيذ المعتّق، وجعلت لها قبواً تحفظها فيها ككُلّ العارفين المتذوّقين -العارفين في شؤون الخمر-. لا أفهم لِم أعرضت عن هذا كله. وكنتَ متخذاً من ذلك أجراً لو أردت.. أنت لا تحب الخوض في هذا الموضوع. حسناً. ولكن هل تَحْرِم نفسك من الغيد؟.. هل تستكثر على قلبك أن يخفق، هل تأبى على نفسك أن تحب؟ والحب دليل العنفوان، وآية النفس السليمة.

وهل أنت أول من حجّ، أو آخر من سيحجّ لتجعل من الحج قطيعة مع حياتك السالفة، أو هجرة كما تدعو. اجْعَلْهُ شعيرة أو منسكاً، أو إن شئت التزاماً اجتماعياً. لمَ تُحمّل الحجّ ما لا يحتمل،

وتريده كما يفعل المسيحيون تحولاً. وهل ينفي الحجّ نداء الحياة؟ أفهم عنك لو أنك أخنيت، ولكنك لا تزال شاباً ممتلئاً برَواء الحياة ودفق العاطفة... وهل تريد أن تصبح ناطقاً باسم الإسلاميين، وأنت من أبعد الناس عنهم، وقد بلوتَ شرّهم المستطير. عفواً، بلوتَ من بعضهم الكذب والافتراء والإغلاظ في القول. أفنسيت؟ رموك بكلّ شائنة، ظلماً وبهتاناً، وسوّدوا بذلك الصحف، ورفعوا عقيرتهم بذلك في البرلمان... بل نعتك واحد منهم بالمجرم.. وحتى صديق من أصدقاء الطفولة من بلدتك شمت بك، كذباً وافتراء.. هذه أشياء لا تُنسى، ولا ينبغي أن تُنسى. استأسدوا عليك لأنهم وجدوك بلا حماية.. فلِم تثيبهم الآن؟ تزعم أن الإسلام أسمى من أي تنظيم أو أشخاص، وهو أوسع من أن يحتكره محتكر، لأنه كالبحر لا ينال منه ما يصَّاعد إلى السماء بخاراً، ولا يؤثّر فيه ما يصب فيها من مجاري وأودية وأنهار.. ولكنهم مَن يزاول السياسة باسم الدين، هم من يتكلم باسمه، وأنت لو سِرْت مسارك هذا حتى نهايته يسَّرت لهم السبيل. وهم لن ينافحوا عنك، هم سياسيون، يضربون أخماساً في أسداس، وهم لا يثقون فيك، ولن يثقوا. ثم هم إلى هذا لا يحبونك، لأنهم يحسبونك من مرّغ بهم التراب في تجربتهم بمكناس، وسوف يتوجّسون منك مهما تفعل.

ثم لِم تصرف جهدك في قراءة رسائل شيخ، حياته غير حياتك، **رسائل النور** لبديع الزمن النورسي. أنت تلقّيت تعليماً عصرياً، فلِم تميل إلى الكُتُب الصفراء.. أفهم أن تقرأ بعضاً من كتابات النورسي للاستكشاف، وأما أن يُصبح ذلك ديدناً عندك فيستعصي عليّ فهم ذلك. ثم أنت كنت معجباً بمصطفى كمال، وما إخالك إلّا كذلك،

فكيف تجمع النقيضَين وتَلُمُّ الشتيتَين. . وأنا لا أفهم هذا العناد الذي يملؤك حتى ليفسد عليك أمرك، وهل تعيش بالكُتُب وحدها، وبالقراءة وحدها. وعمّا قريب ستنضب ذخيرتك، فما أنت صانع، ولك أولاد؟ لقد صدقتك زوجتك القول حين أسرّت إليك وقد أصدرت ديوانك الشعري **فيروز المحيط**. وهل سيعيش أبناؤك بالشعر؟ لقد زعمتَ أنك هدمت الأصنام من فؤادك. حسناً. وهذا لا يمنع أن تتعامل معها. سَمِّ ذلك ما شئت، تكتيكاً، أو تقية، لا بدَّ من شيء يعين على الدهر كما يقول الشاعر القديم.

كان هذا الزائر يترفّق في القول، وكان أحياناً يصطحب بعضاً من معارفي وأقربائي، فيوحي لهم بالقول ممّا ينضح عن سريرته. .

كنت أسمع له أحياناً. كنت في حرب ضروس. حرب استنزاف.

كانت جبال دكناء تتراءى أمام ناظري وأنا أعبر الصحراء من أسَّا إلى طاطا. . كنت قد أنهيت قراءة الحزب، وتملّيت الآية: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، (سورة هود، الآية 113).

كان مرافقي يعرف مني لحظات الخلوة حيث أغور في ذاتي، فيدعني لشأني. .

وردّدت الآية مع نفسي.

أما الآخرون، أولئك الذين رموني بالمثالب كلها فهل كانوا يعلمون الحقيقة كلها؟

ثم صفحت، وأُشهد الله على ما بنفسي، إلّا على الظالمين: ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾، (سورة الطور، الآية 31).

إشْراقات

وتوزّعني نداء العقل متمثّلاً في أستاذي الذي أخذ بيدي وفتح لي منادح المعرفة وسُبُل التفكير والوعي بمحدّدات العالم. هل كنت سأصير ما صرته لو لم أحذق لغات أجنبية فتحَت لي صدر الحضارة الغربية ومنادح العالم؟ وهل كنت أتعلّم تلك اللغات لو لم أقتدِ بأستاذي الذي كان يردّد على مسامعي مقولة الملك كارلوس الخامس: «بقدر ما تمتلك من اللغات بقدر الأشخاص أنت»، ويشفعها بقولة تُنسب إلى الإمام علي كرم الله وجهه: «كل لسان بإنسان». هل كنت سأكتسب وعياً فلسفياً نقدياً لولا أستاذي؟ بل هل كنت أعرف المكوّنات الثقافية لبلدي ووعيي بعمقه الأمازيغي لولا أستاذي؟

أنا مُدين له فيما بلغته من معرفة وثقافة. أنا مُدين له لأنه أمدّني بالأجنحة التي بها طرت. وهل التربية إلّا أجنحة نمدُّ بها الناشئة لكي تحلّق في الأجواء التي تريد، والسماوات التي ترتاد. . أنا مَدين له لأنه أمدّني، من خلال العقل والحسّ النقدي، بمعول هدم الخرافة والأصنام.

كان مثال أستاذي يقودني إلى عالم القوة والفتوة، إلى عالم

الغرب ونموذجه، إلى صراعه المرير الذي خاضه ضد الخرافة، وضد الحكم المطلق. كان يحيلني كذلك إلى الغرب وإغرائه الفكري والمادي، بل إلى متعه. وهل أقبل أن أُحرَم من كأس خمر، ومتعة حديث في عشاء لا يحده موانع من مقدسات وحقائق مطلقة..؟

في سكون المسجد ذات فجر كنت أفكر في هذا كله. أفكر في هذا الدِّين العظيم الذي أحمله لشخص أنار لي السبيل ومهّد لي الطريق... وفي جانب آخر، كان نداء شخص آخر، لم ينل حظاً من معرفة، ولم يسلك دروب التعليم، أو كان معلّمَه الحياةُ في فطرتها وبساطتها. كان هذا الشخص جدتي..

كنت أراها كل فجر وهي تتلو وِردها من حصى النهر وقد أخرجته من جرّة.. كنت أردِّد في ذهني رُفقتي لها لزواية مولاي عبد الله بن طاهر بمدغرة، كنت أردِّد دعاءها على مشارف المقبرة: أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

كانت أشياء كثيرة ممّا كانت تقوم به تلك المرأة العجوز يأباها عقلي.. وهل تسمع عنا تلك القبور أو تعقل؟ وهل تفيدنا شفاعة الأولياء في شيء؟

ثم كانت أشياء أخرى غير تلك التي كان يأباها العقل... كان حدْبها على الضعفاء. كان إيثارها للآخرين ولو كان بها خصاصة، وكان دعاؤها للمسلمين أينما كانوا، ثم نداؤها الأخير قبل أن تُسْلم الروح:.«خليوا الدراري يلعبو بالوسعة»، بلسان تافيلالت القريب من منابع اللغة العربية.

في هدوء المسجد، ذاك الفجر، وأنا أتملّى حياتي، انتصرتُ لتلك المرأة التي لم تنل حظّاً من معرفة على ما أنشأني عليه

أستاذي، بحر العلوم والآداب. غلّبت دعوتها على كل الدعوات التي ملأت حياتي، وأضحى كل ما يهم الإسلام والمسلمين، أينما كانوا، شأني.. بفضل تلك المرأة التي لم ترسم حرفاً قط، ولا فكّت شفرة رسم قط.

لا أزال إلى الآن، حين أذكرها، تغرورق عيناي بالدموع، فلا أتمالك من النشيج...

هي معيني الأول من نبع الإسلام. هي التي سقتني قيمه.. وعدت إليه بعد تلمُّس وكدح..

أذكرها فتسيل دموعي.. وأذكرها إذ أذكرها فأرى فيها نبع الإسلام الذي سُقيتُه وأنا بعدُ في القِماط. هي من أسقانيه. وكان عليّ، بعد عدة تقلبات، أن أبحث عن ذلك النبع، إلى أن وجدته وقد فرغت من السعي بين الصفا والمروة وأنا أنهل من ماء زمزم وأتفكّر فيما حولي لأنهض فجأة وأنا أردّد: أنا مسلم، لأني فهمت معنى «الله أكبر». لم تكن كلمة تتلى. كانت فلسفة حياة وهتك حجاب..

تحضرني تلك المرأة وهي تُرَجّعُ بصوتها الشجي وقد أشرقت الشمس:

نقْرت الشمس، ضوات الدار علي
كيف ندير في نزاهتك يا رسول الله.
مولاي المدني بان نورو ف كل الأمكان
شعشع نورو بين الجبال
سعادت اللي زارو.

والله ما نقنط، وأنا عندي مولانا.

درت رجاي ف الكريم

يحل ذوك القيود

رجال الصوفية..

أنقل تعديدها إلى العربي الفصيح:

(سطع نور الشمس واستنارت البيت فشملني نورها،

يا لفرحتي في حضرتك يا رسول الله،

مولاي من المدينة بزغ نوره وعمَّ كل مكان

وشعشع بين الجبال

يا لبُشرى لمن زاره،

وكيف أقنط وهو مولاي،

رجائي في الكريم

وفي رجال الصوفية

يفكوا القيود).

أو هي تتوسل ببنت رسول الله عليه أزكى الصلاة والتسليم:

لالا مولاتي فاطمة الحبيبة

ضاق حالي

وعيا صبري

فاجيها علي يا مول لفجا..

(مولاتي فاطمة الحبيبة

ضاق الحال بي

وعيل صبري.

يا مُفرِّج الكُرَب
فرّجْ كُرْبتي).

وإليها أسعى جاهداً أن أُوفي بعضاً من الدّين.

ثم أمي التي لم تقابل ما بين الإسلام والأمازيغية قط.. رأيتها ذات مرة ونحن على شاطئ البحر -وأنا في الضفة الأخرى من الإسلام، ضفة الموروث الثقافي- وقد نأت عنّا، رغم أنها تعاني من داء المفاصل، فتعقّبتها، فإذا هي تجمع النُّفايات وتضعها في القمامة. عاتبتها عتاباً رفيقاً لأنْ ليس لها أن تقوم بذلك، ردّتْ:

«**أذْ ياوي ربي لاجْرْ، في سبيل الله، أمْمِّي**» (في سبيل الله يا ابني، قد أنال من ذلك أجراً من الله). فكرت في ذلك طويلاً وساءلت نفسي: ألكي أبَرَّ بوالدتي حقيق عليّ أن أحفظ لسانها وأذهل عن أخلاقها؟ أليست أخلاقها نتاجاً لنبع ثَرّ؟ وهل كانت تبلغ تلك الأخلاقية لولا صَلاتها وقيامها.. أليس من البرِّ بها أن أكرع من النبع الذي صاغها؟ وما لسانها أمام أخلاقها؟

كنت قد زرتها قبل شهور من كتابة هذه الأوراق.. وغلبني الحنين أن أمضي الليلة في غرفة بجوارها.. ثم ملكني الأرق ولم أستطع القيام للفجر.. سمعتها بعد الصلاة هي وأبي يرتلان القرآن.. شعرت بالدفء. عدت إلى البيت بعد غيبة طويلة، كعوليس في ملحمة **الأوديسة**.. وكان ينتظرني صوت القرآن الكريم يصدح في حي الفتح بالرباط حيث يسكن والدَيّ.. الزمان غير الزمان، مع فارق أربعين سنة، والمكان غير المكان، ونحن غير ما كنا، ولكنه

النداء نفسه، نداء الله أكبر. . في باحة الحوش من بيتنا في قصر السوق وسنّي لا يربو على الست سنوات، وأنا أحفظ القرآن مع والدي، تحدّد ما سأصيره فيما بعد. لولا ما تلوت من آيات لَما أنَّ قلبي لما بلا العراقيون، ولا رقَّ لما يلظى به الفلسطينيون، ولا بكى لما بلا مسلمو البوسنة من تقتيل، ولما اهتززت منتشياً لصور الصمود للبنانيين وهم يدحرون الآلة العسكرية الإسرائيلية جنوب لبنان صيف 2006. . لم يكن قولاً يُلقى. وظلَّ رسيس منه حتى لمّا نأيت عن الإسلام.

ثم تذكرتُ لمّا كانت أمي تردّد عليّ صغيراً هذا الشدو باللسان الأمازيغي، كان يتلوه لها جدي اسْعيد نايت امْساعد، رحمه الله، أنقله كما هو حتى لا يضيع، ولعلّه أن يكون من نظمه، ثم أترجمه لكي تفهمه أيها القارئ ممن لا يحسن الأمازيغية:

أيا غْبالو، گ سِيردن

ليسلام أذْ، زدّيگن

أبو الصيفات روانين، أسايْدنا موحمدين.

أتاغْلا أويد أودي، تيزمرا أويد أديف

تيززوا تامامت أداس نگ إِيْنْبي إيمشْلي زيك.

أفاظما أيلّي، ماگ غران س يمي لبيبان.

يان أورياز أبابا، مي يْصْبح أودم.

غْراس ديس أ يلّي، هات أرگاز ألْحيان

أگّان سيدنا موحمدين.

(أيا نبع الإسلام
حيث يتطهّر الأقوام
من المسلمين،
أيا صاحب الصفات الحميدة
يا سيدنا، يا رسول الله.
هُبّي أيتها البقر آتي بالزّبدة،
وأنت أيها الخراف بنِقي العظام آتي،
وبالعسل أيها النحل جيئي،
لِنُهيّئ الفطور باكراً للنبي.
أفاطمُ، يا ابنتي، مَن الطارق على الباب؟
رجلٌ حَيِيٌ أبتاه!
أفسحي له، يا ابنتي، إنه النبي،
وإنه لحَيِي).

عدت إلى البيت، بيتي الأول. كل البيوت الأخرى لم تكن لي سكناً. عدت عوداً جديداً.

في خريف 2009 كنت بموطن أهلي بتافيلالت بزاوية سيدي الغازي. كان البِشر وأنا برحابها ينضح مني والهدوء يشملني. كنت كمن ألقى بثقل وهو يستمتع بلذّة الراحة، أو كالفصيل الذي حَنَّ إلى الناقة وقد لقيها. أسلمني مُقدّم الزاوية ديوان سيدي الغازي، قطب تافيلالت، فأخذت أقرأ في تُؤدة بعضاً من أشعاره ووقفت طويلاً عند هذه الأبيات التي كانت تنفذ إلى سويداء قلبي:

إنـي لـمـسـتـشـفـع بـقـدر جـاهـك يـا
خيـرَ الـبـريـئـة أرجـو الـشَّـمْـل يـتـصـلُ
ولـم أزل واقـفـاً بـالـبـاب مـعـتـصـمـاً
بـه ودمـعـي عـلـى الـخـدود يـنـهـمـل
أجِبْ سـؤالـي ومـا قـد كـان من ضـرر
فـاكـشـفـه إنـك أنـت الـقـصـد والأمـل
ومـا بـقـلـبـي مـن ضـنَـك ومـن كـدَر
أزلْـه حـتـى يـقـال مـا بـه خـلـل
لـكـي أرى بـهـجـة الـوجـه الـبـهـي وكـي
لا تـسـتـقـر بـقـلـبـي دائـمـاً عـلـل
يـا خـيـرة الـرُّسْـل يـا أعـلاهـم نـسـبـاً
بـك الـمـلاذ فـلا خـوف ولا وَجـلُ

كان الأطفال يلعبون خارج الزاوية بأطمارهم في أرض مُتربة تتخلّلها جذوع نخل خاوية. لم يصدّني ما كنت أرى من وكس الحال من النفاذ إلى ثراء الوجدان.. وعاودتني في رحاب تافيلالت تلك الخاطرة التي ألَمَّت بي وأنا بجبل الرُّماة وكادت أن تفسد عليَّ حجّي.. نظرت إلى أُحُد وساحةِ المعركة نظرةً أخرى غير النظرة المجرّدة التي تراءت لي من مكان مُتْرب.. .أُحُد هو امتحان للمسلم حتى لا تغريه الغنائم فيَذْهلَ عن الحق ويقع في المحظور. هو امتحان في مسار المؤمن. هو مُعرّض للنكسات، عرضة للنكبات، موضع الابتلاء، بيد أن عليه أن يتجاوز تلك المحن، أن يجعل منها معراجاً. لا ينبغي لها أن تُثبط هِمَّته أو تنال من عزيمته. ليست الحياة

طريقاً لَحْباً قاصداً لا اعوجاج فيه.. كان ممّا وَقَعْتُ عليه في قراءاتي من طبقات ابن سعد عن وقعة أُحد، وقد حمي وطيس المعارك أنَّ مُصعب بن عمير، رضي الله عنه، حمل اللواء فهو ثابتٌ لا يتزلزل ولا يتململ كأنما قدمه راسخة في الأرض. وأقبل فارس من فرسان قريش فضرب يدَ مُصعب بالسيف فقطعها وسقط اللواء، ثم أخذ مصعبُ اللواءَ بيده الأخرى وجنأ عليه (أكبّ عليه ليقيَه)، فعاوده الفارس القرشي بضربة فقطع يده الأخرى، وما زال مصعب ثابتاً واللواء مرفوعاً وقد أحاطه مصعب بعضديه، ثم يغرز الفارس الرمح في صدر مصعب فيسقط مصعب ويسقط معه اللواء فيتلقّاه أخ له، ولا يزال اللواء مرفوعاً حتى يبلغ المدينة.

ولا يزال اللواء ينتقل من جيل إلى جيل، يحمله إخوة لمُصعب من مختلف الأزمان والأمكنة يدرؤون عن اللواء غوائل الأعداء.

وكيف لا نحب جبل أُحُد وهو يحدّثنا دوماً ويُجزي لنا من النُّصح ما ينفعنا في مواجهة الصِّعاب ومقارعة الخطوب؟

النجود العليا.. أو الظهرة بالمصطلح القديم. ومضات من ملاحم كبرى حين أغار الفرنسيون على تلك الربوع.. غير بعيد من تلك الأرجاء كانت ملحمة الأمير عبد القادر.. هو الفضاء نفسه. ثم بوعمامة، وقبلهما الولي الصالح سيدي أحمد التيجاني، وليد عين ماضي ودفين فاس.. وها هنا، أو هناك وقد انفصل الفضاء، كانت تحرّشات ليوطي من العين الصفراء.. وهي إحدى الحلقات التي هيّأت لاستعمار المغرب... كانت تلك الخطرات تُلحّ عليّ وأنا في رحاب النجود العليا.. كنت أرى لوحات الرسام دينيه، وأوجين فرومنتان[1] أمام ناظري، بين فگيك وقرية إيش[2] حيث تُسبل الشمس حمرة على الجبال وقد آذَن الأصيل واحمرَّ الشفق حمرة مُشْربة بلون الرماد، لون الغيوم. لون فريد من منظر أخَّاذ.. هذه أمكنة لو تتكلم لحدّثت عن هذه العاشقة للصحراء إيزابيل إيبرهارت،

(1) دينيه وفرومنتان هما رسامان اعتنقا الإسلام واشتهرا بتصويرهما للإنسان البدوي بالجزائر، ومناظر الطبيعة بالواحات والصحراء.

(2) إيش هي القرن بالأمازيغية الزناتية، وجمعه إشاون.

وهي تتنقل ما بين العين الصفراء وبني ونيف، وتنفذ إلى أسرار هذه الأمكنة وأغوار نفوس ساكنيها. هي الفتاة من أصول روسية سكنت أُسرتها سويسرا ثم نزحت أمها إلى الجزائر وإيزابيل طفلة صغيرة، نتاج لعلاقة غير شرعية. واعتنقت الأم الإسلام، وماتت على مِلّة محمد عليه السلام وهي في سنّ الشباب ولمّا تُجاوزِ الثمانية والثلاثين من عمرها ودُفنت بتونس. وكان على إيزابيل أن تواجه الصعاب، وليس لها من أداة إلّا تلك العقيدة التي ورثتها عن أمها، ألّا وهي الإسلام.

ثم تحضرني، في تلك الفيافي، ساعات ترتيل القرآن قبيل صلاة الصبح أو بين العشاءين.. ببوعرفة، أو قصر زناگة بفگيك أو دار العُدّة المصاقبة لضريح سيدي عبد الجبار بقصر أولاد سليمان.. محرم من سنة 1431هـ الموافق لديسمبر من سنة 2009م في تلك الربوع، كنت أهُبُّ جذلان وقد تلفعتُ بسلهام من وبر الإبل، دفعاً للبرد وزمهرير الريح، لألتحق بصفوف المؤمنين، ولأستمع إليهم وهم يُرَتّلون القرآن قبل صلاة الصبح، ثم يختمون بقراءة سورة قريش، وهم يدعون أن يعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف... كنت أرى في ترتيل تلك الآيات رجعاً لملاحم ودفعاً للشدائد والبلوى.. كانت تلاوة القرآن تُحيلني إلى أجداد هؤلاء المؤمنين وقد أغار عليهم الفرنسيون، وقطّعوهم مِزقاً، وبلوهم بشَرّ البلاء.. كنت أرى كذلك في ترتيل تلك الآيات، قدْحاً لشعلة الأمل وشحذاً للعزيمة.. كنت أرى في تلك الآيات تجلّيات قوة الإيمان في دفع الأذى ومواجهة الصعاب.. كنت أرى في هؤلاء المؤمنين وهم يَحُلُّون كل صباح، تجديد عقد وتمتين آصرة. كنت

أرى في تلك اللحظات محطة تهزأ بحدود المكان والزمان. لهؤلاء المؤمنين إخوة في بني ونِّيف وتاغيت، وهم يهزؤون، وهم يتلون القرآن، بما خطّه المستعمر من حدود وما أبقى عليه ورثة المستعمرين من حواجز وأحقاد. لهم إخوة هناك بل في كل مكان يُرفع فيه اسم الله، ويُنادى فيه إلى دعوة الحق ومحق الظلم. كنت أرى في تلك اللوحة ظاهرة سرمدية تسمو على الزمن (Atemporel) كما لو هي من عصور فجر الإسلام، أو هي رجع لأتباع الأمير عبد القادر، في تبتّلهم وجهادهم، وهي باقية حتى لما أن يضمَّ الثرى جسدي. وكنت أرى وأنا أكبُّ على دخائل نفسي أن ذلك القرآن الذي يُتلى هو نبع ترتوي منه النفوس، وتتطهّر به القلوب وتُشحذ به الهمم...

ولقد فهمت ما قرأته عن شيخ أزهري إذ قال لمحدّثه: لقد أمضيت سنوات قصار لأحفظ القرآن عن ظهر قلب، وأنا أمضي بقية عمري أسعى أن أنفذ إلى أغواره بالقلب، وما أنا ببالغه. هو لا تنقضي عجائبه. هو هدى وشفاء. هدى وشفاء للمؤمنين.. هو نعمة كما يقول واحد من العارفين المبتلين. نعم، هو نعمة تمدُّ الحياة بأوثق أسباب العيش، تمنحها غاية في الوجود، تجلو عنها الكروب، وتشحذ همتها أمام الصعاب. نعمة لا يعرفها إلّا من ذاقها.. أو كان قد حُرم منها فاكتشفها.

كنت أفكر في ذلك كله ذات ضحى وأنا بقصر من قصور فكّيك على مرمى حجر من قصر بني ونيف الذي يفصله عني مركز حدودي حينما عاودتني ذكرى إيزابيل إيبرهارت. استرجعت بَوْحها ممّا ضمّنته رسائلَها ويومياتها هي التي جعلت الإسلام وطنها. عدت إلى مكتبة ابنتي الكبرى، سلمى، لأستلفَ منها كتاب **يوميات إيزابيل**

إيبرهارت، كنت أهديته لأمها، أنقل منه هذه الشذرات التي تحدّثني وتحرِّك شغاف نفسي، ولعلّها أن تحركك أيها القارئ، منها حديثها لزوجها سليمان بن علي إهَني، ومنها حديثها لنفسها، وأحياناً بصفة المذكر باسم محمود، ومنها حديثها إليك، لو تعلم. أسوقه إليك مما ترجمته إلى العربية.

باريس - 2 مايو 1900 (منتصف الليل)

إذ لو شاء الله لحملني إلى هناك، إلى صمت الصحراء المتصل، في ساعات الهدوء والسكينة، وساعات الأخطار كذلك، ولن تجفوني بها ذكرى المحبوب. لن تنأى أبداً، إن شاء الله. لسوف أدخل في ذلك الحِمى. وعسى ربي، ربّ الحق والمحبة والجلال أن يهديني سواء السبيل. والله يهدي سُبُل الرشاد. عسى ربي أن يُثِيبني حتى لو ضاع مني كل شيء فيسبغ علي الشهادة، وهي خير العِوض. الشهادة في ظلّ اللواء الأخضر، لواء سيدي رسول الله، عسى ربي أن يفتح لي آنذاك أبواب الآخرة المشرقة ويضفي عليّ لذّة اليقين التي يحنُّ لها قلبي بكل صدق ويتحرّق من أجلها، خاضعاً متبتلاً.

وعسى قلبي أن يذكر دوماً ما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، (سورة آل عمران، الآية 169).

إنها آخر أمسية أمضيها بباريس، باريس التي أحببتها من أعماقي، حيث شقيت وحيث ملأني الأمل. الله وحده يعلم إن كنت سأراها ثانية.

أشعر دوماً بأن غشاء من الغيب والمجهول يجثم على حياتنا هذه الفانية ويرين عليها حجاب لا نستطيع هتكه من أيام لا ندرك مداها. بيد أن شمس الأمل تبدو وكأنها ستسطع في الأفق. والله يخرجنا من الظلمات إلى النور.

مارسيليا - 15 يوليو 1901 (الرابعة بعد الظهر)

رسالة إيزابيل إيبرهارت إلى زوجها سليمان إهني

عزيزي مقلة الطير،

أكتب إليك، وقد فرغت من عملي اللحظة، هذه الرسالة الصغيرة. أقتل الوقت بهذه الوسيلة المتاحة والمشروعة، وهي العمل.

زيزو، أريد أن أفخر بك، لذلك أريد منك لكي أثأر ثأراً يليق بنا ضدّ أولئك الذين أقذعوا لنا في القول وآذوْنا، أن تُشقَّ طريقك في إدارات المكاتب العربية (شؤون الأهالي)، هذه الإدارة التي هي سبب بلوانا كلها. وأحسن السُّبُل وأهونها وأقلها كلفة هو أن تُحَضِّر امتحانات الترجمة.. يا له من نصر!.. ضع نُصْب عينيك سُعار أولئك الأوغاد ممن يملؤهم الحقد علينا، ولا ينتهون إلى مرادهم. وكما أسلفت القول، فإن ذلك لا يكفي. أريد وأنت بين ظهراني الضبّاط أن تُظهر لهم أنك بصفتك عربياً ومسلماً أوسع ثقافة منهم. اعلم أنك إذ تعمل من أجل هذا الهدف الذي رسمته لك تعمل لفائدة إخوانك العرب، بل إخوانك المسلمين: لسوف تُقدّم لهؤلاء الفرنسيين المستعربين والمتعالين نموذج العربي الذي بدأ كفارس في جند الإصباحية بدرجة ثانية واستطاع أن يرتقي إلى مكانة تهفو إليها

النفوس وأن يصبح محطَّ تقدير بفضل ذكائه وعمله. ولو توافر بالجزائر عرب مثل ما رسمت، فلسوف يُدفَع الفرنسيون لكي يُغيّروا نظرتهم عن العرب، أو من يسمونهم بتعبيرهم القدحي «البيكو». هكذا ينبغي خدمة الإسلام والوطن العربي، وليس من خلال تبييت تمرّد دموي لا يُجدي فتيلاً ولا يخدم في النهاية إلّا أعداء ما هو عربي ويُثني من عزيمة الفرنسيين الفضلاء الذين يريدون الخير لإخواننا.

عهدي بك ذكي وشجاع وحكيم، ولسوف تقوم بما تقوله لك أمك زيزا من أجل مصلحتك ومصلحتها. وقد ترُدّ بأن «ذلك عمل ضخم». ألسنا نوجد في هذا العالم لنتزكى لأهداف غير معلومة يهيّئنا إليها الباري جل وعلا. ولعلك أن تعترض بالقول إنك خُلْوٌ من أي طموح ولا تبتغي أن تتألّق أمام ناظري الناس. ليس يُجدي حقاً أن يعمل المرء من أجل غاية صغيرة وهي أن يثير إعجاب الناس. أما أنا فأرى أن علينا مسؤولية مقدّسة في هذا العالم، وأن عليك مثلما عليّ وعلى كل المسلمين أن نشتغل بلا كلل لنعيد الاعتبار لأنفسنا أمام الغرب، أن نفرض ذواتنا بالذكاء والعلم. كل مسلم يستطيع أن يتعلّم ويمكنه أن يصبح شيئاً مذكوراً على مستوى الحياة العامة في البلدان المحتلة ولا يقوم بذلك، فهو بمثابة جندي فرَّ من الجبهة وخائن لذويه.

بلا تأريخ

ليس يكفي أن يجأر المرء بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. لا يكفي ذلك لكي يكون المرء مسلماً. على من يعتبر نفسه

مسلماً أن يُنذر نفسه وروحه للإسلام وإلى الأبد، حتى لو أدّى به الأمر إلى الشهادة: أن يملك الإسلام شغاف نفسه وأن يصبح مصدر أفعاله، وإلّا كانت كل طقوس التصوّف بلا معنى. وبهذا الفهم للعقيدة، يصبح الإنسان الذي تملّكته هذه الروح قوي الشكيمة. يمتلك قوة خارقة يراها الإنسان العادي فوق الطبيعة، وبتعبير عامي «امْرابط».. على المرء أن يبحث في الأشياء كلها على ما يسمو به نحو الجلال، هذا الحلول الإلهي السرمدي.

اعتقدت لسنوات منذ حادث بهيمة أني نفذت إلى جوهر هذه الأشياء التي يطلق عليها العامّة بالتصوّف، في سعيهم الأجوف للجُمل الفارغة من المعنى، ولهذه التصنيفات الجزافية التي تتيح لهم أن يتكلّموا بلا روية. وإني لآمل، بل أرى أن قدَري إن كان أن أقطع مدارج هذه الرحلة المباركة، أن يكون عبر المعاناة، وبها أترنّم منذ الآن شدو الاعتراف. هناك شيء ثابت في هذا المسار، وهو أن روحي انعتقت من عالم الأموات حيث ضلّت لردح غير يسير وكادت أن تزلَّ غير ما مرة.

مارسيليا - 22 يوليو 1901

الحمد لله وحده والصلاة على النبي المختار،

عزيزي الغائب المحبوب، الذي تهفو إليه نفسي، من نور عيني وسعادة قلبي ونعيم روحي، سيدي ومولاي، زوجي سليمان بن علي، السلام عليك ورحمة الله عليك وبركاته إلى يوم الدين. آمين.

لقد بلغني كتابك وقد أعملت قلبي ونفذت إلى فحواه. ما كتبَته شأننا ولا يهم إلا أنا وأنت. ولعلّي إن كنت قد فهمت، فلقد كنتَ

ثملاً حين كتبت الرسالة. لقد آلمني ذلك وأبكاني. لقد وعدتني، وأقسمت على القرآن، وبجاه شيخنا المبجّل، أن تُولّي وجهتك شطر الله وتكفّ عن إيلامي عوض أن تعاقر الخمر وتقطع نياط قلبي. والسلام عليك من أمَة الله، زوجك وخادمتك، زيزا، روحك، فتاتك السمراء.

مارسيليا - 23 يوليو 1901 (التاسعة صباحاً)

عزيزي زيزو

رسالتك الأخيرة بتاريخ 19 أهمتني وأثارت الحنق في نفسي وأدخلتني في دوامة من الأسى لم أكن أتوقّعها. إنك لا تكفّ عن ترديد أني أعرفك أكثر ممّا تعرف نفسك، وهو كذلك، ولذلك أرى أنْ ليس لرسالتك إلا تفسير واحد.. لا أزال أذكر الدموع الُمرّة التي كانت تسيل على خدي وأنا على السرير بالمستشفى أتضوّر من الألم لا أقوى على النهوض، حينما تحل كل يوم ثملاً على السرير المقابل لسريري، وأنا أرتجف فرَقاً من أن يدخل الطبيب أو النقيب خاصة أو أي ضابط آخر. لقد صفحتُ عنك، إن كنت تذكر، وأنا إذّ أذكر ذلك فلأني كنت آمل أن تبذل جهدك لكي تبعث فيّ الشجاعة، ولكنك تفعل نقيض ذلك.

رسالتك الأخيرة مليئة بالتناقضات والاضطرابات. إني لأعرفك حقّ المعرفة لأدرك ما وقع. لم تكن لتراسلني، أتسمع؟ لم تكن لتراسلني كما فعلت لو كنت في حالة طبيعية. أنا حزينة، أشقى في المنفى، وأنا بلا مورد، وأنا عاجزة أن أدفع عن أهلي غوائل الإفلاس. نظري كلّه متّجه نحو باتنة حيث غايتي ومُناي. فلِم لا

أستكين أو أهين كذلك؟ لِم أواجه الصعاب أنا «المرأة الضعيفة» رغم الصعاب، أنتقل من مقهى إلى مقهى حيث تتجمّع الساكنة العربية لكي أكتب لها رسائلها مقابل بعض الدريهمات، من أجل التبغ. حاولت جاهدة أن أحدّثك كأم وأخ، وأن أمحضك النصيحة لكي تسلك السبيل القويم، وأُذكّرك بأننا مسلمون وإخوة، وأن لدينا دوراً نضطلع به في هذه الحياة، بل دوراً مقدّساً، وأن اليأس من رَوْح الله وعدم الإذعان لمشيئته والميل إلى التخاذل، إن هو إلّا إثم.

ولا يبدو أن هذا يفيدك في شيء فيؤثّر فيك. يستدرجك نموذج الذين لا يؤمنون، ويستهويك مثال أشباه المسلمين الذين ترين عليهم الغشاوة، ويطبعهم التحلل (الخلقي) ويغرك المُخلّفون من الكفّار. فليست صفتك كمريد للشيخ، كما لدى الكثيرين إلّا نوع من العبث، وشكلية ليس غير، وتحسب أنه يكفي أن تقول إنك قادري. أنسيت ساعات تهجّدنا بالواد حيث ذهبنا كِلَيْنا في ليل الصحراء الساحر لنتوسّل بجاه سيد عبد القادر في زاويتنا بالبياضة، ثم تخلّصنا ببركة شيخنا من وضع معضل؟ أنت لا تستقي العبرة من ذلك. أنا زوجك أمام الله وباسم الإسلام. ولست امرأة أزرى بها الزمان على شاكلة أية فاطمة أو أية عائشة. أنا أخوك محمود، عبد الله، ومريد سيدي الجيلاني، قبل أن أكون خادمة كما تريد العادات لأية امرأة عربية لزوجها باسم الشرع. لا أريدك أن تخذل الأحلام الجميلة التي تملؤني لكلينا.

مارسيليا - 24 يوليو 1901

زيزو

(..) رسالتك الأخيرة أمضّتني وجعلتني أتفكر وأتذكر تلك الأمسيات بالمستشفى التي ليس خليقاً بك أن تنساها (..). دعني أذكرك أنك بصفتك رجلاً ينبغي أن تتصرف كرجل، ولا تدعِ الأهوال تثقلك حتى تهوى بك في الوقت الذي أجاهد فيه أنا المرأة وأصابر بلا كلل. لست أبحث عن السلوان في الخمر، وعلم الله كم أنا محتاجة إلى السُّلُو وأنا أنظر، عن كثب، إلى إفلاس أسرتي. ألتمس الخلاص في التفكير وفي الإيمان. عليك أن تَقفوَ أثَري عوض أن تترك الحبل على الغارب في الوقت الذي لم يتبقَّ لنا إلّا أيام معدودات لنلتقي.. لم أجابهك بشيء حينما قلت لي إنك شربت الخمر، ولكني بعد رسالة البارحة فلن أصمت: إياك وأن تأتي إليّ لتقول لي إنك مريض وهدّك التعب: أنت من اختار، وليس عليك أن تشتكي، إن كان هذا هو تصرُّفك وقد انتهزت فرصة نأيي. تزعم أني نسيتك. كلا، فأنا أفكر فيك آناء الليل وأطراف النهار. أنت من ينسى، من نسيني من خلال تصرّفاتك هذه.

أبذلُ كل جهدي لأكتب لك رسائل طويلة، رسائل من أم وأخ، لكي آخذ بيدك وأواسيك، وأبعث فيك الشجاعة، وأدفعك لتفكّر مثلي. أن تكون مؤمناً حقيقياً، خادماً لسيدي عبد القادر، ولكن كل هذا لا يجدي. تتصرف على شاكلة الآخرين. تعاقر الخمر. ماذا يبقى لي إذاً؟ أن أغادر هذه الحياة التي ضنت عليّ بلُقيا الإنسان الذي اعتقدت لفترة أني وجدته في شخصك. ليس لي في هذه الحياة

إلّا أنت. وإذا لم تكن ما ينبغي أن تكون، ما أريدك أن تكونه، فليس لي أن أستمرّ في المعاناة، في هذه الحياة الدنيا.

لِيَشْمَلْك الله تعالى برحمته في الدنيا والآخرة، يا سليمان. تلك أمانيَّ الأخيرة، ذلك أن روحي لم تعد تهفو لشيء سوى لقاء الله. لم أجد في خلق الله من يحبني ويقدرني ويأخذ بيدي نحو سبيل الرشاد. لقد أخطأت في شأنك بعد أن فرغت من قراءة رسالتك، مثلما أخطأت في آخرين. لم يرزقني الله سوى المعاناة والألم والأوصاب بسبب من يحيط بي من الأقوام.. وأيمُ الله، لئن لم أتوصل برسالة منك الثلاثاء المقبل، ممّا أطلبه منك اليوم، فلن أكتب لك قط ولا كلمة واحدة. لن أبقى في هذا العالم وسأغادر هذه الحياة الدنيا التي لم أجد فيها الحقيقة، لسوف أنأى عنك، أنت من كان حبّي الكبير، أنت من كان بمثابة روحي والنور الذي به أهتدي في حلكة الظلام.

لقد نسيتَ العهد الذي قطعتَه على نفسك آلاف المرات من أنك سوف تكفّ عن معاقرة الخمر، هذا العهد الذي قطعتَه على القرآن الكريم والشيخ الجيلاني. قطعتَه باسمي كذلك. «لئن نكثت العهد فليجعل الله قلبك ينأى عني». أنت لا تفكر في هذه الغائبة، النائية، اليتيمة، في هذه التي تبكي الهَجر أطراف الليل والنهار. قُل لي ماذا اجترحتُ لكي تعذّبني مثلما فعلت في رسالتك الأخيرة. أشكوك إلى الله الذي ليس كمثله شيء. لئن لم أتوصل برسالة منك، رسالة رقيقة، وإن لم تكفَّ عن ارتكاب معصية شرب الخمر، فاعلم أن الله يعلم سكناتك وحركاتك، إن كنت تعتقد أني لا أرى أفعالك ولا أفهم. فالله بكل شيء عليم، كما تعلم. لا تحسبن كلماتي قذعاً أو

غضباً. أبكتني رسالتك ممن هو أعز إنسان عندي في هذا العالم. والسلام عليك من لدن زوجك وحبيبتك التي شفَّها اليأس، مَنْ نذرتْ نفسها لك في الدنيا والآخرة.

لقد صدق الشاعر إذ يقول: القوس يذهب مع الراحل. من غاب عن العين غاب عن الفؤاد، (أو البُعد جفاء).

فاتح يناير 1900

أنا وحيد(ة).. وحيد كما كنته دوماً وكما سأكونه أبداً في هذا الكون الكبير المُغري والطافح بالخيبات.. وحيد، ومن ورائي عالم من الآمال المُخْلَفَة وما خادعت به نفسي من أفكار ماتت وانتهت، وذكريات تتناءى يوماً عن يوم، وتصبح كما لو أنها ضرب من الخيال..

أنا وحيد، وأنا أحلم..

ورغم الحزن العميق الذي يرين على قلبي، فليس حلمي ضرباً من أسى أو مُنى مستعصية البلوغ.

أتلفّع بقناع فأبدو ظاهرياً كمن لا يأبه لشيء، كمن تحرّكه المتع ويضرب بكل شيء عرض الحائط. لا أحد إلى اليوم استطاع أن ينفذ إلى ما وراء هذا القناع ويدرك طبيعة روحي الحقيقية، هذه الروح المرهفة النقية، التي تعرج في الأعالي بعيداً عن الإسفاف والابتذال الذي يروق لي أن أتقمّصه ويسلك سبيله جسدي، ازدراء للمواضعات ولرغبة غريبة في المعاناة.

لا أحد أدرك أن في هذه النفس التي يبدو وكأن لا شيء يحرّكها سوى المتع، قلباً يطفح بالحب والعطف، يرِقُّ دوماً، بأحاسيس لا

تفنى، لكل من يشقى ظلماً، لكلّ مستضعف مضطهد. . لا أحد استطاع أن ينفذ وراء هذا القناع إلى هذا القلب الأبيّ الذي لا تلين له قناة والذي نذر نفسه إلى قضية جليلة. . . إلى القضية الإسلامية التي من أجلها أودُّ أن أبذلَ هذا الدم الذي يجري في عروقي.

لا أحد أدرك ذلك وتصرّف معي وَفْقَ ذلك، وللأسف لن يتاح أن يُدرك ذلك أحد.

هكذا إذاً، رحّالة أنا، لا وطن لي سوى الإسلام. وحيد(ة) بلا أهل ولا خدين. أشقُّ طريقي في الحياة وسط هذه الوحدة التى بها أسمو، وتمزج بين الظلمة والرّقة. أشق طريقي إلى أن تحين ساعتي، ساعة الرقود الأبدي في حضن الرمس.

العين الصفراء، بني ونيف، فگيك - 1903

يرخي الليل سجوفه على الزاوية وقد أخذ الوسن يزحف إليها. تهزّ الريح عروش نخلة تنتصب انتصاب الأبطال وراء الحائط كما لو هي سنان رمح. ليس هناك شجر يشبه عَمود معبد كما يشبهه جذع النخل، فهو يمزج بين شموخ الحرب، واستكانة التصوّف، والإيمان بالواحد، وينفتح هذا الشجر الذي ليس بذي أغصان بالآمال على غرار عرائشه المتدلية. هو تجلٍّ للملكوت في عرائشه، وعرائشه كأنها انبجاس بِركة ماء. أشعر بسكينة تنزل على نفسي التعبة التي هدّها اضطراب الروح.

* * *

كانت الطائرة المِرْوَحية تُحلّق بي في أكتوبر من سنة 2008 فوق جنبات بوذنيب لأقف على الفيضانات التي ضربت تلك الأرجاء وأنا

إذّاك والٍ على جهة مكناس تافيلالت.. تحوم بي الطائرة حول المناطق المنكوبة بقدوسة وبوذنيب وتازگارت وگرامة.. أرى البنايات من الطين وقد انهارت، أرى بِرك الماء في هذه الأراضي القاحلة الجرداء، وأرى جذوع النخل صامدة تتحدى المَحْل والسَّيْل على السواء.. ويسرح ذهني في ذكرى إيزابيل إيبرهارت.. غير بعيد عن هذه الأرجاء رحلتْ لكي تستجمّ، إلى سحر هذا المكان، في هدوئه وجماله وشاعريته.. هدير محرّك الطائرة المروحية ينفث، والطائرة تستدير حول البنايات المنكوبة، تقترب من سيل واد گير الذي يشقُّ طريقه إلى الصحراء عبر العبادلة ويتبدّد في الساورة غير عابئ بما يخطّ الإنسان، غير عابئ بهواجسي وتوهُّماتي. هو صنو الزمن. هو أثيل. وما الإنسان وهمومه وهواجسه؟... هدير ذهني يشتدُّ ويحتدُّ. قبل قرن من الزمن كانت هذه الأرجاء عرضة لفيضانات، بتاريخ 21 أكتوبر 1904، وكانت إيزابيل إيبرهارت بالعين الصفراء.. لو تحدّث واد گير لقال: حدث ذلك أمس، أو اللحظة، أو يحدث الآن، أو قد يحدث غداً. لا يوجد الزمن على المطلق. الإنسان هو من ابتدع الزمن. المكان ينازع الزمن صولته وسؤدده. ومع ذلك يستطيع الإنسان أن يثأر من الزمن. يستطيع أن يوقف سيره. يستطيع أن يصمد لعوامل تعريته الجامحة. أن يسمو على المكان كذلك. بالإيمان والإحسان. إسراء ومعراج. بهما يتوارى صلَف المكان ويندثر جبروت الزمان ويرعوي ازدهاء العقل. بهما يُكرّم الإنسان. بالإسراء والمعراج. بهما يقترب من المنتهى كما يقترب المنحى في الرياضيات من نقطة الالتقاء (Une asymptote). يقترب منها ويوشك أن يبلغها فلا يستطيع. تصبح المسافة ما بين

المنحنى ونقطة الالتقاء، على ضآلتها، منتهى، منتهى أصغر. كلما ازداد المرء قرباً من الحقيقة كلما ازداد بُعداً منها. لا نهاية للكمال. ويخبت المؤمن، وُيدرك حدود سعيه. وهو ما يُعبّر عنه المتصوفة بهذا التعبير القوي: كل كمال نقص، وكل نقص كمال. سجود الإنسان لله ارتفاع له. ركوعه لله سمو له. تدور الطائرة المروحية حول بوذنيب. بنايات متآكلة، شوارع مُتربة، بِرك الماء، الوحل.. هنا في هذه المدينة فَقَدَ أخي عبد الله عقله، وهنا وُلد الجنرال الذي علقت بي لعنته. تحُطّ الطائرة غير بعيد عند طلل مكتب الإدارة الاستعمارية فيما كان يُسمّى بيرو عْراب (مكتب شؤون الأهالي). أُغمض عيني... غَمَر السيل العين الصفرة وجرفت السيول عشرين شخصاً. قبل قرن، كما أمس. أتت إيزابيل لكي تَبلَّ من مرضها. لكي تستريح... وبالعين الصفراء لقيت إيزابيل إيبرهارت ربّها. وُجدت جثةً تحت الأنقاض في بيتها. بعث الحاكم العسكري للمدينة، الجنرال ليوطي، برقية في خمس كلمات: «جثة إيزابيل إيبرهارت تحت الأنقاض»..

ماتت وسنّها سبع وعشرون سنة. حياة حافلة من عمر قصير.

دُفنت في مقابر المسلمين بالعين الصفراء.

. ينزعني ضابط الدرك من تأملاتي.

- لقد وصلنا السيد الوالي.

يَفتح باب الطائرة المروحية. يؤدّي التحية العسكرية. أردُّ التحية العسكرية. أتأهّب لأرتدي قناع المسؤولية. أقرأ الفاتحة سرّاً ترحُّماً على روح إيزابيل إيبرهارت الطاهرة..

لكِ الرحمة والرضوان، يا أختاه في الإسلام. أفلا تذكرين تلك الآية التي استشهدتِ بها في متن رسائلك:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية 169).

تذكّرتك ببوذنيب في ذلك اليوم العصيب، وأدركت حينها أنك حية فرحة بما أتاك الله.

ويا صاحبي من يرافقني في هذا البوح، إن كان قلبك يلهج بالإيمان، ويفيض بالإحسان، ويشمله الإسلام، وينضح بالتقوى، فلْتترحمْ على روح إيزابيل إيبرهارت الطاهرة. لقد نفضت يدها من كل شيء، فلم تبتغِ غير الإسلام انتماءً، فأهون ما نردُّ إليها صنيعها هو الترحُّم عليها والاستغفار لها وقد آثرتنا على كل شيء، وإن حرّكت شهادتها شغاف قلبك، ذكرت قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (سورة الحجرات، الآية 10).

كانت العراجين تتدلى من نخيل واحة درعة من خريف 2009 ونحن نضرب الأرض ما بين الفيافي وضفاف النهر حيث الخضرة والرُّواء.. كنا جذالى ونحن مقبلون على زاوية تامْگروت، نتملّى سكون الصحراء. يصادفنا قطيع من إبل، ونرى نبت الدِّرياس والإبل تنأى عنه، وتلك هي الدِّمن، أريها لصحبي، وهي خضراء، ذات رونق، ولكنها من مَغْطِن السوء.. هي ذي التي ورد فيها الحديث النبوي الشريف: «إياكم وخضراء الدِّمن». هي الفتاة الحسناء من منبت السوء، وهي كل نتاج من منبت سوء.. ولو كان ذا منظر حسن، ولو هو يُغْري... ثم يقطع صاحبنا الحديث بالقول بلهجة تاريفيت، وكان من أهل الريف: «أقّاش أياموَّداكُر»، وهي تستعصي على الترجمة، ومعناها: مرحى يا صاحبي، أو بورك فيك.

ثم وصلنا زاوية تامگروت قبيل الظهر.. وأكلنا رُطَباً وشربنا لبناً.. ثم تلونا الحزب، فالدعاء الناصري.. وسمعت مُقَدَّم الزاوية وهو يردّد شطر بيت قصيدة كعب بن زهير: إن الرسول لنور يُستضاء به... ردّدت الشطر كأني أسمعه أول مرة. ثم ارتفع الآذان، فصلّينا الظهر، وجُلنا في جنبات الزاوية. وقفنا على ذخيرتها من

المخطوطات النفيسة بالعربية والأمازيغية والتركية (كليهما بالخط العربي). . وسرحتُ أتفكّر في هذا المكان حيث درس واحد من عباقرة المغرب وأئمته الأفذاذ الحسن اليوسي. . هنا في هذه الزاوية في ربوع الصحراء نالَ أبو الحسن اليوسي حظّه من العلم، والتي أنشأها أبو ناصر الدرعي، وعمّ نورُها أصقاع بلاد المغرب الإسلامي. هنا مثلما كتب جاك بيرك في كتابه عن أبي الحسن اليوسي، كان العلم يفْضُل ما كان يُلَقَّن في الحواضر، ومنها فاس. . ألم يكن يُهزأ بالحسن (أو لحْسن بالنطق الأمازيغي) اليوسي حين كان يقال عنه: لا عيب فيه إلّا أنه لم يدرس بفاس. . وهو ذمّ في صورة مدح، كما تتضمن عبقرية اللغة العربية المدح فيما يشبه الذمّ. . لم يدرس بفاس وبزّ أقرانه ممن تعلّموا بفاس، وقال عنه محبّوه: من فاته الحسن البصري يدركه، فالحسن اليوسي يكفيه. أعظِمْ بها مرتبة أن يقارَن الحسن اليوسي بالحسن البصري! أقول قولي هذا للذين لا يعرفون محاضراته ورسائله. ولكنّ شيئاً آخر كان يثيرني في سيرة حياة هذا الرجل الفذّ، هو شجاعته، فهو لم يكن يخشى في الحقّ لومة لائم، وهو كتبَ رسائله للسلطان المغربي مولاي إسماعيل الذي كان يَفْرَق منه الكبير والصغير على السواء لجبروته وبطشه فيردّه الفقيه العالم إلى جادة الحقّ غير خائف ولا وجِل. . يُزجي له من التوقير اللازم في حقّ من استرعاه الله على عباده، ثم يُنبّهه إلى مسؤولياته الجِسام في الأخذ بالحقّ والالتزام بالعدل، فيقول قولته في إحدى رسائله للسلطان:

«ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيّدنا وغاية التعظيم والإجلال، والدعاء لسيّدنا بصالح الأحوال، وذاك بعض ما أوجبته يده المنبسطة

علينا بالبرّ والإحسان، والتفضل والامتنان، والتوقير والاحترام، والإنعام والإكرام، مع ما له علينا من الحقوق التي أوجبتها منزلته السلطانية، ومثابته العلوية الفاطمية. وكنا كثيراً ما نرى من سيدنا التشوّف إلى الموعظة والنصح، والرغبة في استفتاح أبواب الربح والنُّجْح، فأردنا أن نرسم لسيّدنا بعض ما إن وُفق للنهوض إليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة، والارتقاء إلى الدرجات الفاخرة، ورجونا وإن لم نكن أهلاً لأن نعظ، أن يكون سيدنا أهلاً لأن يتعظ.

فيعلمَ سيّدُنا -نصره الله- أن الأرض وما فيها مِلك لله تعالى لا شريك له، والناس كلهم عبيد له سبحانه وإماء له، وسيدي واحد من العبيد، وقد ملّكه الله تعالى عبيده ابتلاء وامتحاناً، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح فهو خليفة الله في أرضه وظلّ الله على عباده، وله الدرجات العالية عند الله تعالى، وإن قام بالجوْر والعنف والكبرياء، والطغيان والفساد، فهو متجاسر على مولاه في مملكته، ومتسلِّط ومتكبِّر في الأرض بغير الحق، ومتعرِّض لعقوبة الله تعالى الشديدة وسخطه. ولا يخفى على سيدنا حال من تسلُّط على رعيته ويروم تملّكهم بغير إذنه، كيف يُفعل به يوم يُتمكنْ منه».

هو ذا قول الحسن اليوسي. كان لا يدخل قصر السلطان حين ينادى عليه إلّا صائماً حتى لا ينال من طعام السلطان فيلزمَه، ويضع برنوسه الخشن، وهو بحضرة السلطان على الطنافس حتى لا يمسّ الحرير. وكم كان يكره الحواضر ويحنُّ إلى البادية وبساطة العيش فيها.. ها هنا في رحاب زاوية تامگروت درس هذا الرجل الفذّ وهو الطّود الشامخ، في علمه وفي شجاعته. هنا درس، في هذه الصحراء

الجرداء.. وكم للصحراء من ثراء لا يظهر للعيان.. ألحّت عليّ ذكراه، وأنا في رحاب تامگروت الفيحاء.

وتوقفنا في قرية معزولة بين زاگورة وأرفود هي تازَارِين (وتازارين هي التين بالأمازيغية).. توقفنا في فندق صغير، فاستجممنا، ونلنا حظّاً من طعام، ورغنا إلى غرفنا.. وكم لليل من سحر في الصحراء، وبخاصة حين يعتدل الجو في الربيع أو الخريف.. بل حتى في ليالي الصيف... كم لسمائها من سِحْر، فكأن النجوم مصابيح تتدلّى، وكأنما قطوفها دانية.. لآلئ منيرة، وهي سميرة الليل ورفيقته إلى أن ينجلي الصبح.. ثم هذا الصمت المتصل الذي لا تقطعه نأمة أو ضوضاء، إلّا أزيز الحشرات أحياناً.. هذا الصمت يغري بالحديث إلى النفس ومراجعة الذات...

فضّلت الخلوة في غرفتي على صحبة الصحاب وعلى سحر الصحراء لأن صدر بيت قصيدة كعب بن زهير «إن الرسول لنور يُستضاء به»، الذي سمعته ضحى ذاك اليوم، ملكَ عليّ نفسي... رسول الله نور، وهو نور دائم لا ينقضي.. هو نور في حلكة الحياة.. في تلك اللحظة من ذاك اليوم، أدركت شيئاً لم أنتبه إليه في حياتي قط، هو أن رسول الله محمد بن عبد الله رفيقي في الحياة.. ذاك اليتيم الذي هزأ به صناديد قريش، ذلك الفتى، ذاك الأمين أضحى رفيقي ومستشاري، بل القائد الأعلى الذي أأتمر به.

لم يكن حديثه كلاماً منصرفاً للماضي، ولم تكن معاناته حدثاً انتهى، ولم يكن جهاده لحظة من لحظات التاريخ طُويت.. كنت أشعر به حاضراً معي، يستحثُّ همتي ويكفكف دمعي ويبلسم

جرحي.. وكم بي من جراح، وكم أحمل من آثام.. كنت أسمعه يقول: ولو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُتِمَّه الله أو أهْلَكَ دونه...

وكأني به يقول لي:

- وهل تحسب أن حياتي كانت طريقاً قاصداً، كلا، يا فتى.. لقد ساومني قومي، وحين أعيتهم مساومتهم إيّاي آذوني. هزأ بي صناديد قريش. فتنوني وأغروا بي الأوغاد. أما ثقيف فقد أرسلت إليّ بسفهائها يرمونني بالحجارة.. أيْ نعم، في جسمي ندوب جراح، وفي قلبي آهات وحسرات.. وهل تحسب الحياة مُتَعاً ولغواً، وهل تراها تكاثراً في الأموال والأولاد.. هي جهاد ومغالبة. بلغ من آذاهم لي أن أخرجوني من قريتي وتعقّبوني ليقتلونني. لم تكن الهجرة إلّا مرحلة من الجهاد.. جهاد النفس. نمت بالمدينة على الطوى، وأدمى بي الحصير، وهزأ بي الكفّار، وتآمر عليّ المنافقون وتكالَب عليّ المشركون.. وأنا لا حول لي ولا قوة، إلّا من جمع من المستضعفين من القوم ممن هاجروا معي من مكّة ومَن نصروني بالمدنية.. وهل يقدرون على شيء وقد تكالبت عليّ الأحزاب؟... مِن هؤلاء، مِن المستضعفين من الرجال والنساء جعلت أئمة يهدون للحق، ويدعون إلى الخير، ويعملون الصالحات، بالإيمان. بالإيمان بالله، إيماناً خالصاً لا تشوبه شوبة ولا يُكدّره هوى من متاع الدنيا وحطامها.

وأجهشت بالبكاء..

- أنت، أنت يا رسول الله، حاق بك الضيم، ونمت على الطوى، أنت يا حبيب الله؟

- نعم يا فتى، وهل تحسب الهجرة في الله سفراً قاصداً.. بل هي معاناة. بل هي كدح.

- ولكني ضعيف يا رسول الله، لا أقوى على مقارعة الجبابرة، لا أقوى على حمل الأمانة.. ولي أولاد زغب جياع، فكيف أتركهم عرضة للضياع..

- لن تحبني حقاً حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك وأهلك وممّا قد يدعو إليه هواك.

- ولكني أحبك يا رسول الله.

- وتحبّ الدنيا.. وتحبّ نفسك أكثر ممّا تحبني، فأنت لا تريد أن تُمسك الجمرة..

- هي تؤذي..

- ولكنها الجمرة التي حملها ويحملها ذوو العزم من الرجال والنساء لتنير يوماً، لتنير السبيل..

- وهل أقوى على حمل الجمرة، ولي من الآثام ما تنوء به الجبال؟

- الحسنات يذهبن السيئات. أوَلم تعِ قول البوصيري الذي أسبلت عليه، لفرط حبّه لي، بُرْدتي وقد بدوتُ له في المنام، ولا يراني إلّا الذين يحبونني:

يا نفس لا تقنطي من زلّة عظُمت

إن الكبائر في الغفران كاللَّمَمِ

أفلم تقرأ قوله عني:

دعا إلى الله، فالمستمسكون به

مُستمسكون بحبل غير مُنْفَصِمِ

فكلهم من رسول الله مُلتمِس

غَرْفاً من البحر أو رَشْفاً من الدِّيَمِ

- بلى قرأت قوله وتلوته مرات ومرات..

- ولكنك لم تفهمه، ولم تدرك قصده، لا تزال تنظر إليّ كشخص من شخوص التاريخ. أريدك أن تنظر إليّ كنور ينبعث من فؤادك، وإذّاك ستحبّني أكثر ممّا تحب نفسك بلا عسر، لأن حبّك لي هو ارتقاء بك، هو انتشال لك من أوحال النفس والهوى، هو زَجٌّ بك في بحار الفضل..

- ولكني أحبك يا رسول الله.

- لا بدَّ أن تتجرد من حطام الدنيا، لا بدَّ أن تهاجر يا فتى. لا فتح من غير هجرة. أما سمعت قول الله تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ (سورة الكهف، الآية 28).

- بلى يا رسول الله، قرأته، وأقرأ كل ليلة خميس سورة الكهف.

- ولكنك لا تتمثل آياتها ولا تدرك أسرارها.

- وكيف الهجرة يا رسول الله ولي أبناء، ولي زوج، وقد ألفوا، جميعُهم، نمطاً من الحياة.

- وهل أنت أعطف على بنيك ممن خلقهم؟

ثم وَجَدْتُنِي أسعى إلى نور رسول الله وأنا أرتجف فَرَقاً وأرتعد وَجَلاً أردِّد الدعاء:

- إليك أشكو ضعف قوتي، وقِلّة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتهجّمني أم عدو ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة مِن أن تُنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سَخَطك. لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وما أن أنهيت الدعاء حتى خارت قواي وسقطت على الأرض يكاد يُغشى علي. وغلبني العطش. صحت: «رشفة يا رسول الله، أفثأ بها غُلّتي..».

نهضت من عثرتي وصوتي يتهدج بنجوى الهمزية:

يا شفيعاً في المذنبين إذا أشـ
فق من خوف ذنبه البرآء

جُدْ لعاص وما سواي هو العا
صي ولكن تنكّري استحياء

وتداركْه بالعناية ما دا
م له بالذمام منك ذَماء

كل يوم ذنوبه صاعدات
وعليها أنفاسه صعداء

أَلِفَ البِطْنة المبطئة السيـ
ـر بدار بها البطان بِطاء

فبكي ذَنبَه بقسوة قلب
نهتِ الدَّمع، فالبكاء مُكاء

ما لـه حيـلـة سـوى حيـلـة الـمو
ثَـــق، إمـــا تـــوســـل أو دعـــاء
راجيـاً أن تـعـود أعـمـالـه الـسـو
ء بـــغـــفـــران، وهـــي هـــبـــاء
ومتـى يستـقيـم قـلـبي ولـلـجسـم
اعـوجـاج مـن كـبـرتـي وانـحـنـاء

ثم وقعتُ على الأرض.

وبكَيت.. وفهمت معنى أن يكون محمد حبيباً ومحبوباً.. منذ ذلك اليوم، كلما ذكره الذاكرون اخضلت عيناي بالدمع.. هو رفيقي، أجده في كل منعرج من حياتي وأسأله دوماً فيما يعرض لي من شأن وما يعضل علي من أمر. هو قائدي الذي إذ ينادي أصيح:

- تحت أوامرك سيدي يا رسول الله.

لم تكن **دلائل الخيرات** للقطب الربّاني سيدي سليمان الجزولي إلّا تحفة من ماء الذهب أزيّن بها رفّاً من رفوف مكتبتي لم أجشم نفسي حتى عناء فتحها.. وهي اليوم في نسخة عادية أحملها أين حللت وارتحلت، مشكاة تحمل نور رسول الله.

وأفهمها اليوم، وأفهم ما يقوله الذاكرون إذ يقولون وهم يردّدون قول العارف بالله مولاي عبد السلام بن مشيش: «إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط».

أنقل من حزب الأربعاء من **دلائل الخيرات** هذا المقطع من ليلة عاشوراء 9 محرم 1432هـ الموافق لـ15 ديسمبر 2010م، والدمع يغلبني وأنا أستحضر سبط الرسول، عليه أزكى الصلاة والتسليم،

وقد أحاط به اللقطاء من نسل الطلقاء في بسيط كربلاء، ومنعوا عنه الماء.. ثم حزّوا رأسه.. لك الله يا حسين.. يا سيد الشهداء.

أستغفر الله، وأتوب إليه..

يقول القطب الرباني سيدي سليمان الجزولي رضي الله وأرضاه:

«اللهم صلِّ على سيدنا ومولانا محمد نبي الحكم والحكمة، والسراج الوهاج، المخصوص بالخلق العظيم، وختم الرسل ذي المعراج، وعلى آله وأصحابه السالكين على منهجه القويم، فأعظم اللهم به منهاج نجوم الإسلام، ومصابيح الظلام، المهتدى بهم في ظلمة ليل الشك الداج، صلاة دائمة مستمرة ما تلاطمت في الأبحر الأمواج..».

اللهم لا تكِلْنا لأنفسنا، وكُن لنا ولا تكن علينا، يا أرحم الراحمين.

آمين، يا رب العالمين.


البشائر

في البحر اللُّجي وفي غمرات موجه المتلاطم يبحث الرُّبان الذي يمخر العُباب، عن مرفأ، وقد ضاعت منه البوصلة أو تعطلت، ثم تَراه يُجيل النظرة يُمنة ويُسرة وقد أعيى به الإبحار ونفدت المؤَن وتعب الركاب وضاقت الأنفس، يبحث عن بارقة أو علامة أو إشارة استدلال. ثم تتبدّى أسراب النوارس فجأة. يرى تحليقها في الهواء، ثم وهي تحوم حول السفينة فتُشيع في نفسه الأمن وتبعث على السكينة ويوقن أنه قريب من اليابسة، قريب من الفرج. تحمل الطيور البشائر فينجلي الضيق عن الرُّبان. . . يروغ إلى المرفأ، وقد تنازعه نفسه أن يضرب في أعماق اليابسة يستكشفها، ويفعل، فيجد كنزاً، ويجد ما كانت تتوق إليه نفسه الغرثى، فيحطُّ بها الركاب. وهل كان سيفعل لو لم يرَ طيور اليُمْن وبشائر الفأل الحسن؟

في رحلة الكثيرين إلى الإسلام كانت أولى البشائر طيور تحمل اليُمْن قبل أن يحطَّ المسافر الرِّكاب في رحاب الإسلام. أشخاص يلتقي بهم انطبعت فيهم أخلاق الإسلام فصاروا مرآته. يجدُ فيهم رقّة، ويجدُ فيهم سماحة، ويجدُ نفساً صافية تتأثّر للخير وتأتمّ به وتفعله، ثم يتساءل: أليس بين ما يرى من دماثة خُلُق صلة بمادة

أخلاقية تصوغ هذا الإنسان؟ لِم يجود الإنسان بما يملك ويشاطر الغريب فيه؟ لِم يهزأ المرء بالموت ولا يرى فيه نهاية، بل مرحلة إن كانت حياته تسير على محجّة الحق والعدل؟ لِم يرِقّ الشخص للضِّعاف من الناس والفقراء دون أن يخنع للكبار أو المستكبرين، أو يغريه جاههم وسلطانهم ومالهم؟ لِم يخشى الله ولا يخشى أحداً سواه؟ هناك سبب ما، هناك مرجعية أخلاقية ما، هناك ميكانيكية ما، أفلا تكون الإسلام؟ الإسلام كفلسفة حياة، وليس طقوساً.

يسلكُ الفتى النمساوي اليهودي ليوبولد فايس صحراء سيناء في القطار غداة الحرب العالمية الأولى، والطريق طويل ممل، يفاجئه مسافر من أهل البلد بجلبابه المصري إذ يُخرج زاده من جِرابه ويتقدّم إليه بالقول:

- تفضَّل..

يحسن الفتى النمساوي بعضاً من اللغة العربية، فيتأمّل معنى صنيع الرجل البَلَدي. كيف يُقدّم إليّ الطعام ويكون الفضل مني أنا؟ أي ثقافة هذه؟..

وفي رحلة ليوبولد فايس في مهامهه صحراء الهفوف بالجزيرة العربية سوف يلتقي فتى بدوياً مقلّاً في الكلام، رابط الجأش، كريم النفس، أبيَّها، هو زيد.. حينما يجنّ الليل في الصحراء يطلق زيد العنان لقريحته تحت قبّة السماء بعد أن يكون فرغ من الصلاة، ويتأمّل الرجل الغربي هذا الفتى الهادئ المطمئن الذي خلت نفسه من القلق واضطراب النفس، فيكون بوابتَه إلى الإسلام، ويتسمّى ليوبولد بمحمد أسد، ويتّخذ من الإسلام جنسيته، فيشتغل مستشاراً لآل سعود، قبل أن يختلف معهم، ثم مستشاراً دبلوماسياً لجمهورية

باكستان الفتية بالأمم المتحدة، ويتعرّف إلى محمد إقبال ويقبل على فلسفته، ويستقرّ لفترة بطنجة حيث كتب كتابه الرائع **الرحلة إلى مكة**، ثم يتحول بعدها إلى الأندلس حيث يموت وحيث يُدفن، في التسعينيات من القرن الماضي الميلادي. . .

«تفضل» التي نطقها بدوي «غلبان» في صحراء سيناء حوّلت مسار رجل غربي، مشبع بقيم الغرب، مفعم بثقافته. . .

ينقل عنه ابنه قولاً ثقيلاً وهو على فراش الموت. سأل الابن طلال أباه محمد أسد:

- لو كان العرب حين عرفتهم في شرخ شبابك مثلما هم الآن، هل كنت ستعتنق الإسلام؟

- أغلب الظن أنْ لا، ردّد محمد أسد. العرب اليوم هم غير عرب بداية القرن. لقد أضاعوا الكثير من أخلاقهم.

في المجابات الكبرى من صحراء موريتانيا يخلو المستكشف الفرنسي تيودور مونو لنفسه هو ودليله الموريتاني والليل قد أناخ، والسماء قد ترصَّعت بلآلئها من النجوم حتى لَيحسب الرائي أنها قطوف دانية. ويرى هذا الدليل أخلاق مونو، فيسأله لِم لا يُسْلم، فيجيبه المستكشف، وهو يُسوِّي كثيباً من الرمل فيقول، مشير إلى الكثيب: نحن هنا أسفله وهذه قمته، وهي الحقيقة، وكل يسلك سبيلاً مختلفاً لبلوغها. بيد أن مونو لم ينسَ أخلاق ساكنة الصحراء وقال قولته الشهيرة: «إنسان الصحراء من عجينة متميزة». هي أخلاق الإسلام، وهو ما انتهى إليه الضابط فانسون مونتاي (Vincent Monteil) الذي أسلم وأعلن الشهادة بمسجد نواكشوط، وتسمّى بمنصور. رحمه الله.

ويورد الفيلسوف الفرنسي ميشال أونفراي الذي أراد أن يقيم كهنوتاً ملحداً يقوم على سمو الجسد ضدّاً على الروح، واللذّة ضدّ التعفُّف، والقوة بديلاً عن الرفق، يورد قصة لسائق موريتاني دهس ذئباً في الفيافي، فبكى بكاء مرّاً، وكلما صلّى استغفر. أية أخلاق هذه التي تُقدّر الروح حتى لو لحيوان مفترس؟

وحكى لي أحد الفضلاء قصة طريفة لتونسي كان يعشق ملذّات الحياة، وله صلة بواحد من النافذين من السعوديين استضافه لعمرة، فحلَّ عنده ضيفاً بجدة، وكانت ليلة وردية، استنكف محدّثي عن الخوض في تفاصيلها، وعند الغد قصد الفتى التونسي مكّة، فما أن أمسك كسوة الكعبة المشرفة حتى فاضت شؤونه، فبكي واستعبر وتحرّك ضميره ما بين قداسة المكان والذكرى الغضة لليلته الماجنة.. وحسب أنه تاب. ثم وهو في طريق العودة توقّف بالقاهرة، وقصدَ الأزهر الشريف في أحد حلقاته، وكان شيخ أزهري يُقدّم دروساً في الوعظ، فلما أن فرغ، تقدّم إليه التونسي وقصَّ عليه ما اجترح من آثام قبيل أداء العمرة.

أجابه الشيخ بهدوء:

- كل الحاضرين ممن شاهدت في هذه الحلقة يجترحون من الآثام مثلما اجترحت، ويأتون إلى هذه الحلقات عسى أن يتطهّروا من الأدران بمساءلة الذات. فلست أُزجي معارف، ولكني أذكّرهم ما يكونون قد نسوا، وهو أن يُحاسِبوا أنفسهم. ومن ذا الذي يسلم من الخطايا، يا بُني؟.. والمهم أن نتطهّر ممّا يعلق بنا. والحسنات يُذهبن السيئات.

ثم أضاف الشيخ:

- أنت غريب ها هنا، فهل لك أن تصحبني لبيتي للعشاء.

فاعتذر الشاب التونسي متعلّلاً بالتزام مع بعض من بني بلده من الشباب. فردّ الشيخ:

- إذاً سأصحبك.

فأبلس الفتى، فهو كان على موعد مع صحبه لليلة مرحة قبل أن يُدخِل «التوبة» حيّز التنفيذ، فلا يزال ذَماء من حياته القديمة ينبض ويدعوه إلى المتع رغم بكائه بأستار الكعبة. فاعتذر الفتى، وألحّ الشيخ وكان قاطعاً، إما أن تصحبني وإما أن أصحبك، أما الفراق فلا فراق.

ورأى الفتى أن يصطحب الشيخَ معه. فعلَ ذلك على مضض، وكان صحبه يتهيّؤون لليلة ماجنة، وأطرق الفتى ثم طرق الباب في خفَر، فشُدِه الفتيان لمنظر أزهري بجبّته وعمامته يحلُّ بساحتهم على غير موعد، وغمزهم الفتى ليأخذوا حذرهم. وكانت الطاولة قد رُصَّت بزجاجة ويسكي وقدح الثلج، وكانت فتيات قد تحلّقن بالشباب. فرأى الشيخ انزعاجهم فتوجه إليهم بالقول: «هوِّنوا على أنفسكم واصنعوا ما بدا لكم وافعلوا كما لو أني لست معكم». ثم حمل الفتيانُ زجاجةَ الويسكي إلى المطبخ، وعمّ الهدوء والصمت، وتحوّل الحديث إلى نقاش جادّ. ولم يشرب الفتيان الخمرة تلك الليلة ولا الليالي التي بعدها. أثنتهم عنها أخلاق الشيخ الأزهري. وتزوجت إحدى الفتيات بواحد من أولئك الشباب، وأيقن الفتى التونسي أن أستار الكعبة كانت تهيئه للقاء الشيخ الأزهري، وأنه كان مفتاح التوبة.

في مَسْراي ومساري وَقَرَتْ في ذهني شخصيات كان لها أثر عميق لما آلت إليه حياتي. أذكر شيخاً مهيباً من قرى واحات بلدتي، وأنا إذّاك طفل صغير، كان له ما يشبه مارستان، وكان يقصده المرضى من مختلف الأصقاع، فيقيمون عنده في جنان، ويشتغل الذين يستطيعون الاشتغال، ولم يكن ينال مقابلاً لعمله. لا تزال صورته ماثلة في ذهني، بلحية خفيفة، ولونه الأسمر كأغلب سكان بلدي من جنوب المغرب، ولا أزال أذكر سمْته وإطراقه وتعفّفه. كانت أخلاقه الإسلام.

أذكر وقد جاوزت الأربعين أنْ نُقلت على عجل إلى المستشفى بكوالالمبور إثر أزمة، لإجراء عملية. أذكر رعاية الطبيب وحدبه، قبل العملية وبعدها، وكان أن وُلد له ولد فأثنيته عن المكوث بجنبي، وكان صارماً في حكمه: «أخلاق الإسلام تأبى عليّ ذلك، وأنت ضيف عندنا، ونحن هنا أهلك». وكنت يومها بعيداً عن أهلي، وبعيداً عن الإسلام. وشاهدت وأنا بالمستشفى في التلفزيون عراقياً عقب تجمّع خطابي ترأّسه الوزير الأول السابق مهاتير يندّد بالحرب على العراق، يقول: «الآن أفهم معنى أن يكون المرء مسلماً».

وكنت بمسجد الرفاعي بالقاهرة أتأمل زخرفته حينما أتت زوجتي مع امرأة مصرية تهشّ بنا، فخلتها لأول وهلة «شحاذة»، ولكني وقفت على صدقها وهي ترى مغاربة وتقف على الآصرة القوية بين أهل الله من المغرب (بمعناه العام، وليس القطر المغربي وحده) ومصر.. رأت لربما نفحة من تراث أبي الحسن الشاذلي أو الشيخ البدوي، أو الولي إدريس بن إدريس، أو الشيخ زروق، دفين مسلاتة أو مصراتة بالنطق الزناتي، أو الإمام البوصيري الصنهاجي.. كانت

في خدمتنا، وأهدتنا نسخة من القرآن الكريم ولوحة عليها أسماء الله الحسنى، ولم تبتغِ منا جزاء ولا شكوراً...

وكنت مرة في سوق شعبي بدكار وكان اليوم يومَ جمعة، وحلّت ساعة الصلاة، فتحوّل البائع عني دافعاً بأن الوقت وقت صلاة، ولم نكن أنهينا عملية اقتناء التُّحف، فحمل سبحته من عنقه ووضعها في عنقي، ثم ذهب للصلاة، ولم أكن يومها من المصلّين..

وهذا غيض من فيض من تلك البشائر التي تَفجّر رَواؤها في رحاب الكعبة المُشَرَّفة، فنهلت منها، وغيّرت حياتي رأساً على عقب..

ختم

أيْ نَعَمْ، لم يكن حجّي مُكاء ولا تَصْدِية.. كان لقاء، لقاء لذاتي، لقاء للجماعة.. أَيْ نَعَمْ، لا أفصل نفسي عن الجماعة رغم أني ارتضيت الخلوة... بل ليست الخلوة إلّا حماية.. حماية لما انتهيت إليه.. لا أذكر أين قرأت قول حاج من المتصوّفة الكرام من أنه لأول حَجّة رأى الكعبة، ولثاني حَجّة رأى نفسه، ولثالث حَجّة رأى نفسه في الكعبة.. وتلك أسمى مراتب الحجّ.. وهي لا يمكن أن تكون إلّا مرّة واحدة. اكتشاف المرء لذاته..

لقد توزعتني حتى آخر اللحظات نوازع شتى وأنا أقوم بالمشاعر.. كنت كمن يمشي على صراط. وكان ذلك الكشف الذي يعزُّ عليّ شرحه، والذي بمقتضاه فهمت معنى «الله أكبر»... ذلك الكشف الذي جعلني أنهض وأردّد في رفق: «وإني من المسلمين»..

حياتي تغيّرت منذ ذلك التاريخ.. وليس يهمّني خلاصي الفردي. يهمّني كل ما يهم الإسلام والمسلمين... أرى فقراً، وأرى بؤساً، وأرى ظلماً، وأرى غطرسة.. والأدهى أني أرى الإفتاءات باسم الإسلام... يريدونهم طقوساً كما أراده بنو أمية... وأنا أريده في نبعه الأول، تحت ظلال حامل اللواء، محمد بن عبد الله عليه

أزكى الصلاة والسلام. . أريده تحرّراً من الظلم ومن الفقر ومن الاستبداد. .

أريده مثلما يريده الغيارى ممن يحملون الجمرة في وعي ورفق. .

وأشعر أن هذا الليل البهيم مهما طال، فالصبح مُدركه. .

أليس الصبح بقريب؟

الرباط، الثلاثاء 15 محرم الحرام 1432هـ

الموافق لـ 21 ديسمبر 2010م


تداعيات

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ * لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ * أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

سورة المؤمنون، الآيات 62-68.

وكانت هجرة

كانت صورة نبي الإسلام عليه السلام تُلحّ عليّ وأنا أردِّد في نفسي أمراً لم أستطع له دفعاً، أن أعرض عن لقب ومنصب رسمي يُوثقني، ثم يمضي العمر وينقضي الإنسان.

هل أرضى بوضع راتب مريح وامتيازات، ثم تذوي هِمّة الإنسان ويذهب معها العمر؟ هل أقبل هذه الازدواجية بين ما انتهيت إليه من فكر وما أعيشه من وضع؟ ألا يفضي ذلك إلى تضارب مريع وإلى تناقض فظيع؟ هل أغلّب مصالح أبنائي في عيش رغد، وأستكين لوضع مُغرٍ ولو هو مضنٍ؟ أأرضى باللقب، وهو اللقب الذي لا يعني شيئاً لأنه بلا أدوات عمل؟ أأقبل بالحشْف وسوء الكَيْلَة بعد إذ نهلت من رَواء مكّة؟... ولكني أنعم بوضع يعفيني من متاعب الحياة المادية. ثم هي مجازفة. وهل أقدر على المجازفة؟ أم عليّ أن أقتحم العقبة؟

كنت أمام امتحان عسير.

كنت أصلّي الجمعة بمسجد الشهداء بالرباط، قبيل مراسم دفن صهر لي. حاولت أن أستمع إلى القرآن الكريم، ولكن ذهني كان نافراً، مشتّتاً، وفجأة، انتبهت إلى الآية:

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾، (سورة الكهف، الآية 28).

فانتفضت وكأنما كانت الآية تكلمني.

ثم حضرت لي صورة النبي عليه السلام. ها أنت ذا قد كتبت قبل أيام نصّاً تحدّث فيه رسول الله، وهل يكفي أن تَرْصِف الكلمات وتنمّق التعبير.. هل تشفع الرأي بالفعل؟ هل تقوى على الهجرة؟ هل تستكين للَقَب ولوضع خوفاً وطمعاً؟

وقر عزمي أن أطلب الإعفاء من المنصب الذي كنت أشغله. ولم أفاتح أحداً في الموضوع.

كان المطر يتساقط مدراراً يوم الأربعاء 16 محرم 1432هـ الموافق لـ 22 ديسمبر 2010م. وآنسَ سائقي شيئاً غير معتاد، وهو رجل فاضل من سود الجنوب، قليل الكلام، فطن الذهن تجده دوماً منصرفاً لشغل ما، فإذا انتهى من عمله، حمل القرآن، وسبح في قراءته. وكان حريصاً، رغم ضيق ذات اليد، أن يزور أمه في قريتها تلك النائية من قرى تينغير، ويحدب على أخته التي تعيش في كنفه والمصابة بالسرطان فبُحت له بعزمي، وخفّف من السرعة، وأراد أن يراجعني قراري وأجبته بحدّة بالأمازيغية:

- سق واسكت. أعرف ما أفعل (**حَرّي، ذْ أذور تزيّات أوال. سْنْخ ما ي ذا تكّاخ**).

وكانت من المرات القلائل التي نهرته فيها.

لك الله يا محمد وقد بلغني نشيجك لما أن افترقنا، أو فُرّقنا. أنت من كان أولادي ينادونك بالصحراوي، فأذكّرهم: «وهل نسيتم أن أباكم صحراوي كذلك».

أخبرت زوجتي بالأمر فصاحت على أثَري: «**وحنا، فكرت فينا، وهاذ الولاد لمن غادي تخليهوم**».

قلت لها وأنا أتأهب للخروج: «**كاين الله**».

دخلت والأولاد مرحلة عصيبة. كنت أراهم يبكون وقد أنفوا أن يُحرموا من وضع درجوا عليه، ولسائق ألفوه، بل اصُطنعوا على عينيه. أراه ينفطر، فلا أملك إلّا أن أتماسك. كنت أرى هؤلاً وأداريه، وأستعين عليه بالصبر والصلاة. وغرتُ في ترجمة كتابي حول أزمة الغرب إلى اللغة الفرنسية أصرف فيه هموم نفسي. وكيف مواجهة متطلبات الحياة وقد قُطع عني الراتب، كأني لم أشتغل في الدولة قط، وكأنما طلب الإعفاء من لقب إجهاز على كل العلائق التي تربط مسؤولاً سابقاً بالدولة؟ كان عليّ، وهو الأهم، أن أثبتَ ولا أتضعضع لريب الدهر، مهما كان.

حدث شيء بسيط ولكنه كان ذا دلالة قوية في تلك الأثناء التي أعقبت طلبي للإعفاء. انبرت زوجتي مغاضبة ذات مساء وقد أعيت بها الحيلة. صليت العشاء وخلوت في ركن ذاكراً محتسباً وابنتي الصغرى خديجة/ تِتْريت (أي النجمة) تحبو حولي وتنزع عني قلنسوتي، وما لبث أن طرق الباب طارق، فخرجت لأفتح، فإذا هو مريد من الزاوية الحرّاقية، على غير موعد ولا اتفاق، ولم يسبق له أن زارني قط. وأخذ يردّد بعد السلام أدعية حول مفتاح الفرج...

إذا ضاق بي حالي

شكوت إلى خالقي،

هو القادر على تيسير كل أمري

وكيف يدركني ضيم وأنت وسيلتي.

وكان في البيت شخص من معارفنا يسعى أن يُهدّئ من روع زوجتي، فقصدها في المطبخ مردّداً:

- إن ممّا قال هذا الزائر لآية.

كنت في مكتبي منهمكاً في كتابة مقدّمة ترجمة الكتاب، ذات جمعة، أياماً معدودات بعد ذلك الحادث، وقد فرغت من ترجمته إلى الفرنسية، فإذا زوجتي تغشى المكان لتخبرني، ملتاعة، بمتابعة قضائية من لدن البنك، فصرفتها لكي أتمم ما أنا بشأنه فلا تزعجني بعدها. ثم ما لبثْ بعد لأي أن عادت وهي تصرخ: «ابن علي مشى». وتوقفت عن العمل ثم قصدت التلفزيون لأتابع التاريخ وقد تحرّك.. لم أُقَدِّر مرامي التحول أول الأمر. عشت تلك المرحلة في ذهول وفرَق.

كنت أرى الذين يجابهون الموت، ولم أكن أحسب تضحياتهم بعيدة عني، ولا مفصولة عن حياتي. كان كل اهتزاز في أي مكان في سيدي بوزيد وقصرين أو تالة، ثم بعدها بميدان التحرير، أو بأجدابيا بليبيا أو الزاوية أو مصراتة، يبلغني صداه ويحدث أثره في نفسي.. أشاهد جثث الضحايا في مستودعات الأموات، فيغلبني الحزن، ثم أسرّي على نفسي بعدها وأردّد: «هم غرس الحرية، هم قربان الكرامة، هم سقي الإباء...».

ثم كنت أرى الجموع وهي تواجه البطش بسلاح العزيمة ومضاء الكلمة. أراهم يردّدون قصيد أبي القاسم الشابي ونداءه الخالد: إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. يا له من سلاح! ثم أسمع لقصيدة حافظ إبراهيم: وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبني قواعد المجد وحدي، وقد أضحت نداء للالتئام، كنداء حشر الجيوش.

كان ليلاً بهيماً هذا الذي كنا فيه نموج. كان ليلاً قلب القيم والنواميس والموازين. وأخذت قلاع الزيف تتهاوى، وأخذت تنزاح كثير من الأعراض التي بلونا شرورها، واقترفنا بسببها كثيراً من الآثام، وأسرفنا فيها على أنفسنا فتفرّقت بيننا السُّبُل.

في 23 فبراير من 2011 مررت بمسجد تيمدقين بإفران. توقفت به وكانت الساعةُ ساعةَ صلاة المغرب. أدركتها. صليت الجماعة. كان المسجد ممتلئاً. ولما أن خرجت رأيت شخصاً يرمقني كان يشتغل حارساً في العمالة، وكنت أجالسه في الغابة صيفاً وأنا إذّاك طالب وهو يُملي عليّ بعضاً من أمثال الأمازيغية وحِكَمها، كنت أجمعها. كنت أهزأ من عقيدته وأكلف بثقافته، وكان من الأمثال التي أَخَذْتُهَا عنه هذا المثل:

أوونّا يلاّن جَاجْ نْ عاراي، هانْ يزِم أَكْ يّتشْ.

(يا من في عُقْر الغاب بالأعالي، حذار، فقد يأكلك بها السَّبُع).

تذكرت المثل ساعتها، وقد كنت قبلها، في عُقْرْ الغاب، بالأعالي.

صوّب فيّ النظر كما لو هو يرى أمراً عجباً. كدت أقول له: أي نعم هو أنا ذاك الشخص، أعود إلى المكان ذاته الذي فارقته قبل زهاء ثلاثين سنة، وكان فؤادي يومها فارغاً، أعود إليه وقلبي مفعم بالإيمان، قوي الإرادة، سمين الرجاء رغم ما يعتري حياتي من نوائب. كنت أقرأ في عينه الذهول ثم أتممت المسير. غلبني الحياء.

حضرت ندوة بالرباط حول تداعيات الربيع الديمقراطي بتاريخ 18 فبراير 2011، وكان ممّا قال مناضل معروف بنزاهته وثباته وقوة

شكيمته هو محمد الساسي: «الآن مرحباً بك أيتها الموت». ولم يكن قولاً يُلقى. كان وقراً ما كان ينوء تحته الصادقون وقد عمّ الفساد كل أوجه الحياة وملأها الزيف، ولم يسَعْ صاحبي إلّا أن يستقبل الموت فرحاً منصوراً وقد انزاح الإصر.. ومع ذلك أريد أن أقول لصاحبي، علينا أن نحيا لنرعى هذا الغرس. من أجله نحيا إلى أن يتخطّفنا الموت.. أن نحيا هازئين بالصعاب، أن نحيا مُغلّبين واجب النُّصرة للذين يكابدون ويواجهون الطغيان.

وهل كنت أستطيع أن أتابع هذا التحول لو كنت موثَقاً بمنصب؟ وهل كنت أستطيع أن أنفض الأغلال لو لم أكن نهلت من رَواء مكّة ولم أستنشق أريج سيرة فتاها وسيدها، محمد بن عبد الله، عليه أزكى الصلاة والسلام. شهادة «الله أكبر» مذ أدركت معناها في رحاب الكعبة خلّصتني من كل أسباب الشرك وضروب الأوثان..

لقد تحرّك التاريخ، وإنها لمسؤولية جسيمة أن نسعى سعينا لكسب الرهان. وإنه للبوار إن نحن أخفقنا. وليس لنا مثلما قال قائلنا وقائدنا، من ذي قبل، طارق بن زياد، إلّا النصر. النصر على أنفسنا، وعلى شرور أنفسنا.

ويبقى الأمل، وما كان لهذا الأمل أن ينقدح لولا دماء الشهداء.

فالمجد والخلود لهم. عليهم الرحمة والرضوان.

السبت 29 ربيع الأول 1432هـ

الموافق لـ 5 مارس 2011م

الحنين إلى مكّة

وهزّني الشوق إلى مكّة في رابع ذكرى بعد أن نهلت من رَوائها. كانت قلاع الزيف تتهاوى، فرأيتُني بين غفوة وصحو وقد اضطجعتُ بأفناء البيت المُحرَّم، وإذا جلَبَةٌ توقظني، فاعتدلت من اضطجاعي فوجدتُ رجلاً مُحتبياً عن يميني، وهو مُطرِق في هدوء وسكينة فحييته بتحية الإسلام، ثم سألته:

- أما سمعتَ دبيب جموعٍ موعدُها مكّة؟

- بلى سمعتها، ولذلك أنا هنا، وهي بشائر فتح.

وعاودت السؤال:

- بالله هلّا أخبرتني من تكون؟

فردّ:

- أوَما عرفتني؟

فأجبت:

- أعذُرني يا أخي، فلقد التقيت بأقوام عدة في حياتي، فلم أعد أثبت على شيء..

- وكنا التقينا بمِنى قبل أربع سنوات ونحن نصلّي الفجر، وكنت أتقدمك في الصلاة، فإذا أنهينا الصلاة، توسعتُ في المجلس

أتملّى، حتى إذا أرسلت طرفي إلى الخلف، ألفيتك تنظر إلى قدمي المُشَجّة.

، ولم يتمم مقالته حتى ارتميت عليه:

- بلى أذكرك، ولم أكن أُقدّر يوماً أني سوف ألتقي بك.

- فها أنت ذا تراني، في حَرم مكّة أنتظر ما تنظره، من قدوم صحب محمد، عليه أزكى الصلاة والسلام، ليطهّروا مكّة من الأوثان، ويحرّروها من بطش المشركين، كما في الزمن الأول..

- أهذا الذي رأيت بين صحو وغفوة؟

- بل هي صحوة، وهي رؤية، وهي كفلق الصبح..

- بالله، هلّا أخبرتني من تكون؟

ثم ابتسم كأنما ليُسرَّ إليّ بِسرّ:

- أنا عمّار، عمّار بن ياسر؟

- أنت عمّار؟ أنت الذي تقتلك الفئة الباغية؟

- وما قتلتني، أو هي لم تنل من روحي، وقد دأبتُ أن أحجَّ إلى بيت الله الحرام فألتقي بالحَجِيج مَن أُذكِّرُه وعد الله الحق، وأنَّ الله لا يُخلف الميعاد. وقد نظرتُ إليك بمِنى، وأدركتُ يقيناً أنك سوف تنهل من حياض الإسلام، وأنك سُتهاجر في الله وترقّب يوم الفتح العظيم.

فلم أتمالك أن نزعت يده أقبّلها، وهو يمسكها عني، ويردِّد:

- لا يستقيم ذلك يا فتى؟ أعرْض عن هذا. حسبُك.

- ولكني أقبّل يدك حبّاً لا طمعاً ولا خوفاً، ورسول الله عليه أزكى السلام يأمرنا أن نَفْشي الحب لمن نُحب..

فضمّني إليه، ثم قبّلني على رأسي.

- نِعم الفتى أنت من قوم الأحرار، الأمازيغ، لقد أبلوا في دائرة الإسلام، وأحسنوا البلاء. ولن تجد مثل طارق بن زياد، ولن تلقى مثل يوسف بن تاشفين. نِعم الرجال هم، وطوبى لمن ينتسب إليهم.

- أوَتعرفهم؟

- وكيف لا أعرفهم وأنا أتردد على هذه الأرجاء منذ مقتلي وأستقي أخبار الإسلام، وأعرف ذريتهم من الأولياء والمجاهدين، أولئك الذي سقوا بدمائهم غرس الحرية من أعالي الأوراس، والجبل الأخضر وأيير والريف والأطلس وفي كل مكان من المغرب الإسلامي.

فاندهشتُ. ثم عقّب:

- تعال لنلتحق بواحد من صحْبك، مُديم السؤال عنك، متطلّع لرؤيتك..

فخرجنا حتى باب السلام، عند البطحاء، ووجدت شخصاً مستنداً على سيارة، ما أن رأيته حتى عرفته، وكان سائقي حين حججت. فانفلتُّ من عمّار بن ياسر وألقيت بنفسي بحضن صاحبي، فهاجت شؤوني وهو يُهدّئ من روعي، وانبعثت من صاحبي روائح زكية لم أشمّ مِثلها قط في حياتي، ونزعني عمّار من حضن صاحبي:

- أوَعرفتَ صاحبك؟

- وهل يخفى القمر؟

- نعم قد يخفى القمر، وكل مصدر نور لمن لا يبصرون

بقلوبهم. إنه صاحب الخندق، إنه سلمان. سلمان الفارسي. من آل بيت رسول الله، عليه أزكى الصلاة والتسليم، ينتسب إليه بجهاده وإبائه، وتلك الروائح التي انبعثت من صاحبك هي روائح الجنة.

فهويتُ على الأرض أقبّل قَدَمَيْ صاحبي، فإذا هو يرفعني من كتفي وينهرني:

- الرفعة لله وحده، لا شريك له، وهذا ما علّمنا رسول الله عليه أزكى الصلاة والتسليم، وكنتُ من قوم يعبدون أشرافهم، ويُطَأْطِؤون الرؤوس لملوكهم ويجعلونهم المؤتمنين على رقابهم.

- وكيف لا أُقبّل رجليك والتراب الذي تمشي عليه، وأنت من أنت. أنت من أنقذ الإسلام وقد أحاطت الأحزاب بمحمد وصحبه تتهدّد هذا الدّين حتى لا يُرفَع اسم الله في هذه الديار ولا في غيرها، فيرفع رسول الله يد الضراعة مبتهلاً إلى الله عز وعلا أن يحمي هذا الدين وأن يهزم الأحزاب، فأشرتَ بحفر الخندق. أنت يا سلمان، إحدى المحطات المشرقة من تاريخ الرسالة، تنضاف إلى الملاحم الناصعة منها، من مهبط الوحي، إلى الهجرة، فبدر والفتح..

فنظر إليّ بنظر حديد حتى لكأنه سهام نفذت إلى سويداء قلبي قائلاً بحدّة:

- وما يفيد الماضي إن لم يصلح عبرة للحاضر؟ أريدك أن تحرّرني يا فتى قبل الفتح، وإلّا بقِيتُ كما رأيتني من قبل سائقاً أو خادماً لدى علية القوم. لستُ شخصية تاريخية انتهت يختلف بشأنها الرواة والمحقّقون وأصحاب التعديل والتجريح. أنا عديلك يا فتى،

ومُعاصرك، فالأحزاب لم تُدْحر، وخطرها مُحْدق، والمنتسبون إلى قريش يعيثون الفساد، والمشركون يتربّصون، والمنافقون يُدارون. .

- عفوك، عفوك يا سيدي، يا سلمان، وما تريدني أن أفعل، وأنا لو تعلم، مغلوب على أمري، ضعيف الحَوْل والأيَد.

- ولكنك يا فتى إن ضممت جهدك إلى جهود فتية آخرين حدث من ذلك شأن عظيم. أفلا تذكر قول الرسول، عليه الصلاة والسلام؟ إنما يأكل الذئبُ من الغنم القاصية. فإذا نحن تفرّقنا، وذهبنا طرائق قِدداً، فشلنا وذهبت ريحنا.

- أي والله.

- فافْشِ في قومك أني لا أريد بأهلك ولا بالعرب سوءاً، وأني لا أبغضهم، وكيف أبغضهم وبالنبي العربي هداني الله.

فسالت دموعي على خدي. فربت على كتفي تحت نظر عمّار، وأضاف:

- ساعة الفتح أزفت بيد أن للفتح أشراطه، ولا فتح مع دعاوى جاهلية.

فأنْغَضتُ برأسي. وكيف أجرؤ على الحديث بحضرة سلمان وعمّار، رضي الله عنهما. فأشار عليّ سلمان، رضي الله عنه، متعللاً بالتزام:

- انصرْف راشداً، وموعدنا الصبح.

ورأيت من وجهه نوراً يَشِعُّ. وأغذذت السير بالبطحاء حتى سفح أبي قبيس وأنا على أَثَر عمّار، فرأيت رجلاً أسمر اللون مُحتبياً وقد نشب ضفائر حبال حول أصابع رجليه يفتلها. حدّقت النظر فيه فإذا

أنا أعرفه، وإذا هو الشخص الذي رأيت بمسجد المدينة المنوّرة بعد إذ أذَّن آذان المغرب وهو يغمس الخبز في الماء ليفطر به، أربع سنوات خلتْ. فأسرعت الخطو لأُقَبِّل يده، فما أن دلفتُ إليه حتى انتهى إليّ ترنيم أرجوزة يردّدها، بصوت عذب رخيم:

غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه

ولم أمهله فارتميت على يده، فنزعها مني، ثم حدّق ببصره نحوي، وعاود أرجوزته وهو يضفر فتائل الرّسن:

غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه

فكاد لساني أن يُعتقل، وقلت بجهد جهيد:

- سيدي، ألست الرجل الأفريقي الذي. . .

فافترّ ثغره عن ابتسامة حزينة وقال في قصد وتُؤدة:

- أنا بلال، بلال بن رباح، مُؤذّن رسول الله عليه أزكى الصلاة والسلام، أتأهبُ لأصدح بنداء «الله أكبر» من فوق الكعبة إن شاء الله، ساعة الفتح، كما في الزمن الأول، وأنا كما ترى، أفتل الحبال لأرقى بها. .

فارتُجَّ عليّ، ولم أستفقْ إلّا على أصوات متداخلة. كنتُ قد أسندت رأسي على رُكبة سيدنا بلال، رضي الله عنه، وهو يُرَبِّتُ عليّ بحُنُو، وأسمع صوته العذب يردّ على عمّار بن ياسر وهما يتحدثان بشأني:

- دعْه يستريحْ فهو تَعِبٌ، وقد هدّه السفر ووعثاؤه وبرّح به الداء. لقد كان يهذي ويتكلم كلاماً مضطرباً بلسان أعجمي لعلّه لسان الإفرنج.

فرد عمّار رضي الله عنه:

- ولكنني أريده أن ينهض من عثرته فلا تُقعدَه عن اقتحام العقبة..

- هوِّنْ عليك يا عمّار، فباللين تُفَكُّ العُقَد وبالحِلم تُفْرج الكُرَب..

فشعرت براحة لم أشعر بها قط وأنا في حضرة صاحبَي رسول الله، وإذا صوت سيّدنا بلال، رضي الله عنه، ينتهي إليّ تارة أخرى، وهو يُشَخِّص حالي:

- لقد هدأ ارتجاجه ولَفَظ ما كان يُثقل عليه واستقام خفقان قلبه وهو يستفيق من غفوته..

وانتهى إليّ قول عمّار يُحدّث سيدَنا بلالاً:

- إنك يا بلال لا تدعو الناس للصلاة وحدها، بل تَشفي القلوب. لله دَرُّك يا ابن رباح..

ثم أُغمي علي، واختلطتْ رؤى الأحلام والذِّكَر، فرأيت سيرة هذا العبد الذي كان سليل أشراف الأحباش، وكيف انتهى الأمر بأبويه إلى الاسترقاق وخدمة عِلية قريش، ثم رأيته وهو في رمضاء مكّة يُسام الخسف ولا يزيده ذلك إلّا ثباتاً، ثم يُعتق بلال ليصبح علماً من أعلام الإسلام. وهل كان يبلغ هذه المكانة لولا محمد، نبي الهدى والرحمة وسراج القلوب؟ وتقلّبت بين يقظة وغفلة، وشعرتُ بدبيب يد تمسكني، ثم فتحت عيني، فأبصرت شخصاً أعرفه، نعم أعرفه، أزرق العينين، أصهب، كان وهو يطُوف بالكعبة ينادي بالإنجليزية بالنصر والرفعة لإخواننا في فلسطين وفي الشيشان

وفي كشمير.. هو.. وهو الآن يمسك يدي ويجسّ نبضي ويستمع إلى خفقان قلبي، وأسمعه يكلّم سيدنا بلالاً ومولانا ياسر:

- اضطّراب عادي، نتيجة تحولات عميقة، ومخلّفات سابقة. سوف يعود سيرته الأولى..

- لا شُلّت عشرك يا صهيب.

ثم يتحول صهيب نحو صاحبَي رسول الله عليه أزكى الصلاة والسلام بالقول:

- لو قرأتَ عليه شيئاً من القرآن يا بلالاً، ولو ذكَّرته يا ياسر بسيرة خير الأنام، وبآله الأطهار وصحبه الكرام.

ثم استفقت وبلال يرتل القرآن الكريم كما لو أنه قرأ ما دار بخلدي:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، (سورة القصص، الآية 5).

فاستفقتُ واستويت، كأنما أضحيتُ شخصاً آخر، وقد تبدَّد كلٌّ غمّ وغاض كُلُّ همّ، ثم أخذتُ أُرتِّل القرآن مع صحبي، من سورة الفتح:

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾، (سورة الفتح، الآية 12).

ثم ارتفع صوت صحب رسول الله عليه أزكى الصلاة، كأنه الجيش اللَّجب، ووقفت إجلالاً وأنا أرتل ودموعي على خدَّي تنهمر:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾، (سورة الفتح، الآية 29).

ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين.

10 صفر 1433هـ

الموافق لـ 14 يناير 2012م

الفهرس

حسن أوريد

رواء مكة

وأتممتُ الحجّ.. كانت الكعبة المُشَرّفة لقاء، لقاء مع ذاتي.. كان طوافي بحثاً، ولما أن فرغت سعيت، وبعد السعي، انزويت جانباً أنظر إلى ما حولي وأتملّى حياتي... قد كان لحجّي ألّا يكون إلّا شعيرة. وفجأة، نعم، كماء يتفجّر من الأعماق تحوّل رَواء انبجس من داخل نفسي... كنتُ أشرب من ماء زمزم من كوب من ورق مُقَوّى وأنا أنظر إلى جموع الساعين يمشون في رفق، ثم ما يلبثون أن يهرولوا. هل لكلّ ما أرى من معنى؟ وفجأة وقفتُ، وأنا أردِّد، بلى.. وهل الحياة إلّا تلبية لنداء الله.. له وحده لا شريك له...

❖❖❖

حسن أوريد، كاتب وأديب من المغرب. حائز على جائزة بوشكين للآداب لسنة 2015 من اتحاد كتّاب روسيا. من أعماله الأدبية: **ربيع قرطبة، الموريسكي، سيرة حمار، الأجَمة، رباط المتنبي**، ومن كتبه الفكرية: **أفول الغرب**.


ISBN 978-9953-68-923-4



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com